57

عبدالله يوسف سهر محمد

مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية

تجاه العرب والمسلمين

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/ مارس 1994 كمؤسسة مستقلة تهتم بالبحوث والدراسات العلمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج والعالم العربي. وفي إطار رسالة المركز تصدر **دراسات استراتيجية** كإضافة جديدة متميزة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

دراسات استراتيجية

مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين

عبدالله يوسف سهر محمد

العدد 57

تصدر عن

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

محتوى الدراسة لا يعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

الطبعة الأولى 2001

توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان التالي :
دراسات استراتيجية - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب 4567، أبوظبي
دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف : 6423776 - 9712 +
فاكس : 6428844 - 9712 +

e-mail: pubdis@ecssr.ac.ae
www.ecssr.ac.ae

المحتويات

مقدمة

إن التصور أو الانطباع الخطأ له أثر محدود حينما لا تنسحب تعدياته إلى الواقع. وفي حالة برمجة السلوك العملي بناءً على أسس هذه التصورات والانطباعات الخطأ، فإن مسألة التفهم الجماعي البنّاء بين أبناء آدم تكون عقيمة حتى إن وجدت الأرضية المطلوبة للحوار. وعند تفحص مضمون القراءة الغربية للتاريخ العربي والإسلامي لا تبدو لنا متوقفة عند حدود الأخطاء النظرية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى مرحلة تكريس اقتناع ذي قالب جامد، يؤثر بشكل كبير في العملية السياسية، وينعكس بوضوح على تفاعلات سياسات الدول الغربية تجاه العرب والمسلمين سواء في الماضي أو الحاضر. ونتيجة لذلك ينبغي علينا أن نعرف كيف فهم الغرب تاريخنا العربي والإسلامي، لنستطيع أن نفهم سياساته تجاهنا وبخاصة تلك التي تتصف بمفارقات مزدوجة وغير موضوعية، والتي تتناقض مع شعاراته الأيديولوجية والإنسانية البراقة في مواقع عملية لا يحصى عددها.

يهدف هذا البحث في الأصل إلى محاولة ربط السياسة التي تنتهجها الدول الغربية – وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية – بوصفها قوى عظمى تجاه العالم الإسلامي والعربي بتصورات المدرسة الاستشراقية. وسوف نتابع في سياق البحث التطورات المعرفية التي طرأت على هذه المدرسة منذ بدايات الاحتكاك السياسي والمعرفي الأول حتى الوقت الحالي. والسبب في هذه المراجعة هو معرفة أصول الأفكار الحديثة التي تتبناها مراكز الاستشراق الدولية اللصيقة بمراكز صناعة القرار في الدول الغربية. وبناءً عليه يكون لزاماً توضيح القراءة الغربية ـ الاستشراقية للعالم

العربي والإسلامي. ونظراً إلى اقتصار هدف البحث على الربط بين أفكار المدرسة الاستشراقية والسياسة الغربية الحديثة إزاء العرب والمسلمين، سوف تكون تلك المراجعة للقراءة الاستشراقية سريعة في مراحلها الأولى.

وتجدر الإشارة إلى أنه عند تناولنا لبعض آراء الكهنوتيين المسيحيين والمستشرقين الغربيين بخصوص الإسلام والعرب فإننا لا نقصد الإساءة أبداً إلى الديانة المسيحية وأتباعها، فهذه الديانة تحظى باحترام خاص لدى المسلمين والدين الإسلامي، ولكن لأن بعض المنتمين إليها خصوصاً من المستشرقين الذين اختمرت آراؤهم بحوافز سياسية، قد شكلوا محوراً تصورياً مغلوطاً كان له الأثر البالغ في تشكيل الانطباع الجماعي في الغرب عن الإسلام والعرب، فإنني لا أجد مفراً من الإشارة إلى هذه الآراء التي لا تمثل في تقديري الشخصي آراء الديانة المسيحية السماوية، ولا تمثل بالضرورة آراء الأغلبية من أتباعها.

القراءة الغربية - الاستشراقية

تنقسم القراءة الغربية ـ الاستشراقية للتاريخ الإسلامي إلى ثلاث دوائر تاريخية مر بها المسلمون، وهي كالآتي:

الدائرة التاريخية الأولى

ونطلق عليها دائرة "التراكم العدائي المغلوط"، وهذه الفترة التاريخية تبدأ منذ بزوغ الإسلام مروراً بالفتوحات الكبرى وانتهاء بتضعضع قوة الدولة العثمانية في نهاية القرن السابع عشر. وكان المسلمون خلال هذه

الفترة في سدة القيادة العالمية يسيطرون على مساحات واسعة، كما أنهم كانوا يهددون تخوم أوربا، حيث فتحوا معظم بلاد اليونان والمجر وحاصروا فيينا ووصلوا إلى حدود فرنسا. ونتيجة لذلك تكوّن عند الأوربيين الذين كانت تسيطر عليهم الكنيسة حينذاك ما يسمى "عقدة المسلمين"، وظهرت شروح كثيرة حول خطر المسلمين وديانتهم على المسيحية وأوربا، بل حتى على العالم كله. ويقول المستشرق الروسي ألكسي جورافسكي (Alexy Zhuravsky) عن هذه الحالة: «لقد هيمن على الإدراك (الوعي) الأوربي في القرون الوسطى الموقف السلبي الصريح تجاه الإسلام، على الرغم من أن الأطروحات والمؤلفات المصنفة ضمن هذا المنحى قد انتشرت عندئذ بأشكال وصيغ مختلفة ومتمايزة جداً»[1].

ويعطي جورافسكي أمثلة من هذه المؤلفات الرائجة وتأثيرها في الإدراك والوعي الأوربيين، فمثلاً خرج أحد الرهبان الدومنيكانيين (Dominicans) الذي زار بغداد على الأوربيين بحكاية فحواها أن الشيطان استخدم كتاباً ووسيطاً من طبيعته لوقف انتشار المسيحية، والكتاب يقصد به القرآن، أما الوسيط فيقصد به الرسول محمد ﷺ، الذي يجسد روح المسيح الدجال! وراهب آخر يقول عن الرسول ﷺ إنه ساحر، ولقد سمح بالدعارة والفسق كسباً للأتباع. ويتابع جورافسكي القول إن بعض رجال الدين في العالم المسيحي كانوا يطلقون على الرسول ﷺ اسم (ماهومت) أو (موميتو) الذي يعني الصنم (Mamomet)، ثم حُور المعنى ليكون بمعنى الدمية، والذي لم يستطع كذلك أن يكون رجل دين فهرب إلى جزيرة العرب ومعه عقدة الإحباط والفشل والتأثر بالمذاهب والديانات الأخرى[2].

كما أن هذه الأفكار نفسها تتكرر في أشهر كتاب درامي - ديني في أوربا وهو «**الكوميديا الإلهية**» (*The Divine Comedy*) لمؤلفه دانتي أليجيري (Dante Alighieri) أعظم شعراء إيطاليا، الذي وصف عذاب الرسول محمد ﷺ والإمام علي كرم الله وجهه في الآخرة على نحو ساخر ومخيف، لأنهما - حسب رأيه - أصل الفساد في الأرض[3]. لقد تكونت بفعل هذه الكتب وغيرها تصورات وإدراك جماعي لدى الأوربيين بأن الإسلام يتسم بالكذب والتشويه، وأنه دين الاحتقار والجبر والانحلال الخلقي والتساهل في الملذات والشهوات، وأنه دين لا يعرف إلا لغة الحرب والخراب والإرهاب.

ولم يتحرر من هذا الإدراك المغلوط حتى أعلام الأدب والفلسفة الأوربية مثل شكسبير وتوماس الأكويني (1225 - 1272) وفولتير ومونتيسكيو؛ إذ يورد الأول في إحدى رواياته المسرحية، أسطورة الحمامة التي دربها الرسول محمد ﷺ - كما يدعي الكهنوتيون في تلك الفترة - على نقر أذنه كي يتصور العرب بأنها وحي سماوي، ويقتبس شكسبير هذه الأسطورة على أنها حقيقة بلا إدراك ولا تفكر، ويقول في أحد فصول مسرحياته الروائية: «أتُلهم الحمامة محمداً؟ ... أما أنت فإن النسر ربما ألهمك»[4]. ولا يخرج عن هذا النطاق توماس الأكويني أو توما الأكويني كما يسميه بعض الدارسين، وهو أشهر فيلسوف ورجل دين أوربي، حيث نظر بازدراء إلى الإسلام بوصفه ديناً للجهلة ومؤيدي استخدام العنف، ولقد ورث هذه النظرة السلبية الكثير من فلاسفة الغرب وأدبائه إلى حد ساهم في بناء منظور عام عن العرب والمسلمين يصعب التحرر منه إلا فيما ندر[5].

فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد همفري بريدو (Humphrey Prideaux) الذي يعد من أوائل المستشرقين، يخرج بفكرة لإنقاذ المسيحية التي ضعف وهجها السياسي في عهده بالقرن السابع عشر حيث يقول إن الإسلام كان عقاباً من الله على تشرذم المسيحيين وخلافهم وبخاصة في المقاطعات الشرقية للكنيسة الرومانية، وعليهم الآن أن يتعظوا ويحلوا خلافاتهم، وإلا فسوف يرسل الله عليهم عقاباً آخر (محمداً آخر)، ليعكر صفو حياتهم وأمنهم[6]. ويتواصل معه الفيلسوف الفرنسي العلماني الشهير فولتير في كتابه «**النبي محمد**» *(Mahomet)* فيتقوّل على الرسول ﷺ ويصفه بأنه عار على الجنس البشري، حيث إنه يجسد خطر التعصب والنفاق والعنف[7].

ويشير الفيلسوف مونتيسكيو صاحب نظرية فصل السلطات إلى أن الإسلام استبدادي ومتناقض مع الغرب، وذلك في أطروحتيه «**روح القوانين**» *(L'Esprit des lois)* و«**الرسائل الفارسية**» *(Letters Persians)*، ونقلها بعد ذلك عنه كارل ويتفوجل (Karl Wittfogel) في كتابه الذائع الصيت «**الاستبداد الشرقي**» *(Le Despotisme Oriental)* الذي نشر عام 1967[8]. وعلى الرغم من الفروقات الفكرية التي تفصل بعض هؤلاء العلماء والمفكرين عن بعض، من حيث منطلقاتهم الفكرية سواء كانت لاهوتية أو علمانية، فإنهم قد اجتمعوا على رأي مشترك تنتهي خلاصته بالصورة السلبية تجاه المسلمين والإسلام.

وهكذا فإن النظرة في هذه المرحلة التاريخية والمتقدمة منها بخاصة تنم عن رؤية عدائية مغلوطة عن الإسلام بسبب توسع الأخير وانحسار

المسيحية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخها. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن هذا الموقف العدائي قد يرجع إلى تأثير رجال الدين وسيطرتهم السياسية الكبيرة في أوربا قبل عصر النهضة، مما يجعل هذه الآراء ضرورية للخطاب السياسي أكثر من أن تكون ذات بعد ديني بحت. ولقد خلقت مثل هذه التصورات والانطباعات الفكرية عن الإسلام والمسلمين قولبة جماعية لدى الخواص والعوام في آن معاً يمكن أن نصفها بالهالة الفكرية المسيطرة (Paradigm) على الفكر الأوربي السياسي في تلك الفترة[9]. ولقد أثرت هذه الهالة الفكرية المسيطرة في الدوافع السياسية إزاء الشرق الإسلامي وتجسد ذلك في التوجهات السياسية عند الأوربيين بشكل كبير عندما قاموا بالحملات الصليبية المتكررة على فلسطين وبلاد المسلمين.

هذه الأفكار لم تعبّد الطريق للاستعمار الغربي فحسب، بل أعطته مسوّغاً ووازعاً نفسياً وحضارياً وسياسياً وأخلاقياً. ولعل هذه الأفكار كانت شبيهة بتلك التي أطلقها بعض الكهنوتيين ورجال الدين قبل فترة الحروب الصليبية، كالدعوة العلنية الشهيرة التي أطلقها البابا أوربانُس الثاني عام 1095، والتي طالب فيها أباطرة أوربا وملوكها وحكامها باستعادة الأراضي المقدسة من يد "القوى الشيطانية" ويقصد بها المسلمين. والجدير بالذكر أن الحملات الصليبية السبع جميعها التي استمرت بين عامي 1096 و1291 لم تكن تخلو من أهداف وحوافز دينية، تمثلت في السعي لطمس الإسلام ومعالمه والقضاء على المسلمين وتراثهم، بالإضافة إلى كثير من الأهداف الاقتصادية والسياسية. وإن فشل هذه الحملات لم يردع كهنة أوربا وملوكها عن التفكير مجدداً في غزو بلاد الإسلام، بل

أخذ التفكير يتراكم تحت حطام العقدة إزاء المسلمين. لكن بسبب حالات الشقاق والخلاف التي شابت العلاقات الأوروبية ـ الأوربية في تلك الحقبة التاريخية، لم يكن هناك خط سياسي متفق عليه لمواجهة المسلمين بين النخب الحاكمة في أوربا.

وبعد تدهور دور الدولة العثمانية وهبوط قوتها دب الأمل من جديد بالأطماع الأوربية نحو الشرق، فأخذت دولها وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا وبروسيا والنمسا وروسيا في تهميش دور العثمانيين وتمزيق دولتهم من خلال سلسلة كبيرة من الاتفاقيات السرية والعلنية. وما إن شعر الأوربيون بترنح الرجل المريض (الدولة العثمانية) حتى لجؤوا إلى التآمر الاستعماري المنظم، مما تمخض عنه بزوغ الدائرة التاريخية الثانية، التي انتقلت بالعلاقات الأوربية ـ الشرقية إلى جولة جديدة تمثلت بالاستعمار.

الدائرة التاريخية الثانية

بعدما انقضت المرحلة الأولى التي شكلت بدايات التفكير الغربي تجاه المسلمين والعرب، والتي أدت إلى تأسيس رؤية مغلوطة مصحوبة بحافز وسلوك سياسيين بدأت مرحلة تاريخية ثانية يمكن أن نطلق عليها مرحلة "الإرث الاستعماري". وبدأت هذه المرحلة مع إرهاصات انهيار الدولة العثمانية وبروز دور محمد علي في مصر. وفي الحقيقة إن هذه المرحلة قصيرة جداً مقارنة بسابقتها، وإن أهم ما فيها هو انبعاث الأمل من جديد ببناء دولة قوية في العالم الإسلامي، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل وذهب أدراج الرياح.

ففي هذه المرحلة خرج محمد علي بحركة إصلاحية داخلية، إضافة إلى حملات عسكرية توسعية كان من المحتمل أن تؤدي إلى قيام دولة إسلامية جديدة وقوية تكون مصر قلبها النابض. وقام إبراهيم باشا ابن محمد علي بحملات عسكرية كبيرة، كان مؤداها هزيمة الجيوش العثمانية في قونية عام 1831 حتى وصل إلى أبواب القسطنطينية، فما كان من الدول الأوربية التي كانت متفقة على تمزيق الدولة العثمانية إلا أن تناقضت مع هدفها بصورة وقتية، وشكلت تحالفاً بين إنجلترا وبروسيا والنمسا وروسيا من جهة وبين قوات الباب العالي من جهة أخرى، تمخض عنه توقيع معاهدة لندن عام 1840، وترتب على هذا التحالف إلحاق الهزيمة بقوات محمد علي، وإجباره على التراجع والبقاء في حدوده داخل مصر. والسؤال المطروح هنا، لماذا لم تترك هذه القوى شأن المسلمين للمسلمين دون أن تقحم نفسها في صراع يمكن أن ينعكس عليها أيديولوجياً، وبخاصة أنها سعت مراراً إلى إسقاط الدولة العثمانية، وجازفت بفرصة قد لا تتكرر؟ إنه سؤال يحتاج إلى تأمل فكري عميق.

ولعل من أهم الأسباب لهذا الموقف الأوربي المتناقض تلك الرؤية المغلوطة المتراكمة من الماضي نحو المسلمين وإسلامهم. فلم يعد الغرب الأوربي يفكر إلا من خلال هذه التركة التي مهدت للعصر الاستعماري، وأوجدت المسوغات النفسية والحضارية والسياسية الأخلاقية كما سبق أن أشرنا. فأوربا لم تعد تتحمل أي حركة سياسية في الشرق الإسلامي يمكن أن تؤدي إلى دفع تاريخي نحو الأفضل، وإن التاريخ وفق الرؤية الغربية الاستعمارية يجب أن يكون عنصرياً بحيث تبقى أوربا والغرب في القمة

وأن تبقى العناصر الغربية هي العناصر المؤثرة، بينما يبقى العرب والمسلمون على ما هم عليه من سلبية وتأثر وضعف. ويقول جورافسكي في كتابه «**الإسلام والمسيحية**» عن هذه الحالة إن الأوربيين لم ينظروا إلى الإسلام كعدو أثناء فترة التعصب والتحكم الديني في أوربا فقط، بل حتى أثناء الفترة اللاحقة وبالتحديد إبان الاحتلال الاستعماري في القرنين التاسع عشر والعشرين، فلقد كان الدين شعاراً أيديولوجياً للاستعمار لا يمكن أن ينكره أحد. ويمكن التدليل على ذلك باستعراض الموقف الكنسي إزاء الاستعمار، ونذكر بهذا الصدد وصف مطران باريس الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1840 بأنه انتصار للمسيحية على الإسلام[10].

وحتى نستطيع أن نتعرف الثقافةَ السياسية التي دفعت الفعل السياسي الأوربي إزاء العالم الإسلامي، يفترض أن نسلط الضوء ولو بصورة سريعة على بعض الأدبيات الغربية عن الإسلام خلال هذه الفترة، لكن قبل ذلك حري أن ننبه على أن معظم الأدبيات في هذه الفترة قد قام بتأليفه مؤرخون وأنثروبولوجيون وفلاسفة من ذوي التنشئة غير الكهنوتية، حيث ركب معظمهم سفن الرحالة والاستكشافات إلى الشرق لدراسة مجتمعاته عن قرب. ولقد سمي هؤلاء بالمستشرقين لتخصصهم بالشرق (Orient)، وظهرت معهم المدرسة الاستشراقية (Orientalism) بشكلها المحترف أي بوصفها مؤسسة ثقافية في الغرب.

وعلى الرغم من أن كثيراً من المستشرقين لم يتلق دراسة دينية فإنه ظل يحمل انطباعات المدرسة الدينية وأفكارها عن المسلمين وعن حتمية الصراع وبديهية التناقض الحضاري معهم، حتى حينما قام بدراسة المجتمعات

الإسلامية والعربية من خلال العيش في أوساطها. وفي هذا الحكم على المستشرقين لا أدعي العمومية ولكن الوجه الأغلب. فهناك بعض المستشرقين الذين أنصفوا أصول البحث العلمي قبل أن ينصفوا موضوع البحث ولم تتأثر دراستهم بنصرة طرف دون الآخر[11]، ولكن الذين نعنيهم هم الذين أسسوا المعرفة التصورية الأوربية عن المسلمين في عهد الاستعمار، والذين أعطوا غطاءً فلسفياً وأخلاقياً للتوجه الغربي المعلن نحو الشرق، وشاركوا في استراتيجية السيطرة عليه. وأفضل من ألّف حول موضوع الاستشراق والمستشرقين هو إدوارد سعيد في كتابه الشهير «**الاستشراق**» *(Orientalism)*. والاستشراق، حسب رأي سعيد، نظام معرفي ومنهج يمثل إدراكاً غربياً متأسساً على نظرة دونية لما هو شرقي وعلى نقيض ما هو غربي. ويجب تأكيد أن آراء المدرسة الاستشراقية تلاقي فهماً وقبولاً خاصاً، بل دعماً منظماً من الحكومات والنخب التي تمتلك القوة في الغرب، لذلك فإن محنة الاستشراق تمثلت في التقاء المعرفة المغلوطة عن الشرق مع المصلحة والقوة القاهرة التي يمتلكها الغرب، مما جعل الاستعمار يحظى بتسويغ حضاري وتاريخي وفلسفي وقبول حتى عند العامة من الناس في الغرب. وأصبحت مسألة الهيمنة على الشرق ومجتمعاته – بما فيها الإسلامية – مهمة حضارية و "مسؤولية إنسانية" عند الإنسان الغربي. ويعبر عن هذه الحالة جولز هارماند (Juels Harmand) أحد الدعاة للإمبريالية وللاستعمار الغربي عندما أكد ضرورة القبول بهرمية الحضارات، وبالتالي أحقية الأفضل منها بفرض نفسه على الآخرين[12].

واستطاعت المدرسة الاستشراقية أن تصنع وعاء احتوى على خبراء في الاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا والسياسة وعلم النفس وعلوم الفنون واللاهوت، إضافة إلى صانعي القرار السياسي في الحكومات الغربية ومتخذيه. وكان الإنتاج الكبير لهذه المدرسة متمثلاً في عقدة "نحن" و"هم" و"الأعلى" و"الأدنى". ومن بطن هذه الحالة أو العقدة، كما نسميها، تخرج كتابات كثيرة ومصنفات عديدة لعلماء غربيين يعتبرون من أقطاب الفكر الغربي والعالمي. فعلى سبيل المثال يقول توماس فالبي فرنش (Thomas Valpy French) (1825 ـ 1891): «إن المسيحية والمحمدية في اختلاف تام مثل اختلاف الأرض والجنة، لا يمكن بأي حال أن يتعايشا معاً»[13]. ويزيد عليه معاصره آرنست رينان (Ernest Renan) (1823 ـ 1892) أحد علماء أوربا الذي أسس معرفة الدول الأوربية عن الإسلام في أطروحته «**الإسلام والعلم**» *(L'islamisme et La Science)* حيث يقول إن شعوب الشرق وأفريقيا ذوو عقول مغلقة أمام العلم، وليسوا بقادرين على الانفتاح على أي شيء جديد. كما يذهب رينان إلى أبعد من ذلك ويقول: «إن مستقبل الإنسانية متوقف على الأوربيين، ولكن هناك شرطاً ضرورياً لذلك؛ تحطيم عناصر الحضارة السامية والقوى الدينية للإسلام»[14].

وفي السياق نفسه يأتي آخرون، لا يسع المجال لذكر تصوراتهم من أمثال جيرار دي نافال (Gerard de Nerval) وفولني (Volney) ومارك بلوك (Marc Block) بالإضافة إلى جموع كثيرة من المفكرين والمثقفين الغربيين أجمعوا على تفوق كل ما هو أوربي وأن الشرق بما يحتويه من ثقافة وإنسانية ما هو إلا سقوط خارج أطواق التاريخ المتحضر[15]. ناهيك

عن دعم هذه التصورات بالمشاهد التصورية للشرق، التي رسمها أكبر فناني الغرب مثل جون أوجست دومونيك إنجريه (John A .D. Engres) صاحب لوحتي «الجارية والعبد» و«الحمام التركي» والذي لم يذهب إطلاقاً إلى الشرق! أما يوجين ديلاكروا (Eugene Delacroix) الذي شغف بالصور "الشهوانية الجنسية" للعرب والمسلمين فيعكس هذه الحالة في لوحته «الجارية»، وقد أراد من خلال لوحته إبراز ماهية الشرق حسب اعتقاده.

أما لوحة جان ليون جيروم (Jean-Leon Gerome) «ساحرة الثعبان» فهي تعطي صورة حقيقية للانطباعات الاستشراقية المغلوطة عن المجتمع العربي الإسلامي. هذا، إضافة إلى عدد كبير من الفنانين المستشرقين، الذين يصعب حصرهم، والذين رسموا "الحريم" مثل جون لويس ولودفيج دويتش وألبرتو باسين. وفي الاتجاه نفسه يتفنن آخرون برسم الرقيق مثل لوحة «سوق الرقيق بالقسطنطينية» لوليم آلان، الذي صور كيف ينتزع الرجل المسلم الطفل من أمه في أثناء بيع الرقيق، ويظهر آخران من الأشداء يجران امرأة بالعنف ليبيعوها. وعلى هذا المنوال ينسج وبهذا الموّال يغني الكثيرون في الغرب أنشودة الرق والحريم والجنس في الشرق، كل هذا – طبعاً – باسم الفن الواقعي[16].

ولم يقتصر تأثر الفنّين التشكيلي والواقعي بالصورة المغلوطة عن الشرق، وإنما تعداها إلى أن يحاكيا الواقع السياسي ليتأثرا به ويغرفا منه ألوانهما. ولما كان الفن ممزوجاً بالسياسة، فرضت هذه الأخيرة لوناً خاصاً على الفنانين في تلك الحقبة، وخرج ما يسمى بـ " الفن والسياسة من

فوق". وتمثَّل هذا اللون في كثير من اللوحات الفنية العالمية الشهيرة، ومنها: لوحة جيرين «ثوار القاهرة يطلبون العفو» عام 1808، التي تعبر عن حقيقة الأيديولوجيا الاستعمارية، حيث صور بألوانها الثوار المصريين بمظهر المنهزم الضعيف الذليل الطالب للمغفرة والرحمة من نابليون بونابرت وأعوانه الذين صورهم بمظهر الرحمة والحضارة. أما لوحة جيروديه «انتفاضة القاهرة» عام 1810 فلا تخرج عن النمط نفسه، حيث تصور كيف يحاول الجيش الفرنسي صد عنف الثوار بأسلوب "حضاري" تأسيساً على الانطباع الذي يعزز مفهوماً محدداً يتلخص بأن الجيش الاستعماري يؤدب الشعوب المتخلفة الرافضة للحضارة والرقي ويطورها.

ويأتي كثير من اللوحات لأنطوان جان جرو مثل «بونابرت يزور مرضى الطاعون» و«معركة الناصرة» التي انتصر فيها الفرنسيون على الجيوش الإسلامية والتي تُظهر الجندي الفرنسي بالمظهر الشجاع النظيف الرشيق في مقابل المسلم الضعيف الخائف[17]. وهناك سلسلة كبيرة من اللوحات خدمت أيديولوجيا الاستعمار، ومن ثم أخذت طريقها إلى الشهرة العالمية وسكنت المتاحف الرئيسية في العالم، وهي تختزل الصورة الدرامية المقلوبة للشرق الباطل والغرب الحق. وعلى الرغم من تسمية هذه الأنواع من النقوش بفن المدرسة التعبيرية أو الواقعية، فإننا لا نجدها - في الواقع - تثبت حقيقة أكثر منها انسياقاً أعمى خلف الاستشراق السياسي، الذي كان هدفه فرض واقع آخر وليس اكتشافه.

إن هذه العقدة إزاء المسلمين والعرب جعلت المواطن الغربي لا يرى تناقض حكومته، التي تدعي الحرية والديمقراطية والليبرالية والتقدم

والمساواة، والتي - من جانب آخر - تمارس القهر الاستعماري ومساندة أقطاب الدكتاتورية وأذناب المستعمرين في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، وفي فلسطين والسودان خلال فترة الانتداب والاستعمار البريطاني، وفي ليبيا عندما احتلها الإيطاليون، حيث لم يعد غريباً أو مستهجناً إعدام عمر المختار، بل أصبح قتله انتصاراً إيطالياً وأوربياً، لأنه كان يمثل قوى الشر والتخلف ضد قوى الخير والتطور تبعاً للتصور الغربي.

وبناءً عليه، فإنه لا وجود لأي غبش أو غمامة عن تأثير المدرسة الاستشراقية التي صورت كل عمل شرقي على أنه سوء، وكل فعل شرقي إيجابي على أنه خطر على الغرب، بينما تجد الخطيئة العارية التي يقوم بها الغرب تبريراً أخلاقياً في البناء الثقافي المتجسد في مقولة «نحن الأعلى» و«هم الأدنى».

وبهذا أصبح الفعل الغربي سابقاً لوجود مسبب شرقي، كما أصبح التبرير الغربي مجرد إسقاط لغوي خاو من محتواه المنطقي. ولماذا يُحتاج إلى المنطق بالأساس إن كان الغرب - حسب الرؤية الاستشراقية السلبية في طرحها العام - هو المنطق؟! وضمن هذا السياق نستطيع أن نتوصل إلى جواب السؤال الذي أوردناه سلفاً عن سبب وقوف الغرب ضد حركة محمد علي وإلى جانب الدولة العثمانية، على الرغم من اقتباس محمد علي كثيراً من الأنماط الغربية في حركته الإصلاحية، وعلى الرغم - أيضاً - من معاداة الدول الغربية للإمبراطورية العثمانية التي كانت تعد رمز الضلال الإنساني والحضاري عند الغرب؛ فإن أي ظاهرة أو حركة توحي بنهضة الشرق كان على الغرب أن يقمعها سواء أكانت تلك الحركة قومية أم

إسلامية، رأسمالية أم اشتراكية، علمانية أم دينية. وعليه لم تكن سياسة الغرب - ولن تكون - موجهة ضد أيديولوجيا بعينها، ولكن ضد ما تحمله هذه الأيديولوجيا من قدرة على النهوض بمجتمعها في الشرق، لهذا فإنها حاربت العلمانية عندما شعرت بقوتها في عهد عبدالناصر واليوم تحارب الإسلاميين بالسلاح القديم نفسه[18].

الدائرة التاريخية الثالثة

مع بزوغ فجر الدولة الحديثة في العالم الإسلامي بعد سقوط الدولة العثمانية وتكريس تبعيتها شبه الكاملة للغرب، ضمر الهجوم الأوربي على الديانة الإسلامية وعلى خاتم المرسلين محمد ﷺ، ولكنه من جانب آخر أخذ ينظر في كيفية إخراج المجتمعات الإسلامية من تراثها الإسلامي إلى حيز تراث ملة الغرب. وتمكن تسمية هذه المرحلة التاريخية بدائرة "الاستعمار والانطلاق نحو العالمية". لذلك السبب امتزجت أطروحة المدرسة الاستشراقية التقليدية بأدبيات مدرسة التحديث (Modernization) في الفترة الزمنية الواقعة بين العشرينيات والسبعينيات تقريباً من القرن العشرين[19]. وإذا كانت المدرسة الأولى (الاستشراقية التقليدية) تنظر بشوفينية (Chauvinism) ودونية - بشكل عام - إلى العرب والمسلمين فإن المدرسة الثانية (التحديثية) حاولت أن تقدم نموذجاً للمجتمعات الإسلامية والعربية يحاكي نموذج التجربة الغربية، فكان نتاج هذا التزاوج بين المدرستين المناداة بالعلمانية وتهميش دور الدين، بل توظيفه في خدمة السياسة النخبوية العلمانية.

وعلى صعيد آخر عمدت هاتان المدرستان إلى تغريب (Westernization) المجتمع العربي والإسلامي عن طريق تسمية ظواهر التقدم وتشخيصها وفرزها عن ظواهر التخلف؛ فالتقدم تبعاً لهذا التصنيف هو أن تتبع الغرب فكراً وسلوكاً ابتداء بالاعتقاد بالعلمانية النخبوية التي لا تفرز إلا نظماً دكتاتورية، وانتهاءً بوجوب ارتداء ربطة العنق بوصفها مصداقية للحداثة كالنموذج التركي ـ الأتاتوركي. وأخذ معظم الدول الإسلامية وكثير من الطبقات السياسية والثقافية في السير في هذا الاتجاه، سعياً وراء التقدم والتطور حسب الوصفة الغربية للعالم الثالث، فتبنَّى معظم الدول الإسلامية الأنظمة العلمانية، كما تبنَّاها بعض الطبقات المثقفة.

ومن أهم فرضيات مدرسة التحديث أنه كلما ابتعدت الدولة عن الأنماط التقليدية التي منها الدين، كان هناك تقدم نحو الحداثة، ولا يشترط وجود الديمقراطية لكون مجتمعات العالم الثالث تتمتع بثقافة "خاصة"، أي بمعنى أنه لا ضرورة للديمقراطية في هذه المجتمعات كي تتطور سياسياً، ولكن الضرورة أن تعمل النخب الحاكمة ضمن نغمة الغرب وليس ضدها. لذلك ظهرت عدة دول في العالم الإسلامي تنادي بالعلمانية مثل تركيا في عهد مصطفى كمال أتاتورك، وإيران في عهد محمد رضا شاه بهلوي، وإندونيسيا في عهد أحمد سوكارنو، ومصر في عهد جمال عبدالناصر الذي بات يوصف بأنه دكتاتور عنيف ومتطرف عندما خرج على نغمة الغرب. كما اقتبس الكثير من الحركات والأحزاب في الدول العربية والإسلامية الاتجاه الغربي نفسه للتحديث، مثل حركة القوميين العرب وحزب البعث والحركة الناصرية وحركة تركيا الفتاة، فأخذت بمبدأ فصل الدين عن الدولة لكن دون ديمقراطية.

ولكن ما إن لبثت هذه الدعوات لفترة وجيزة حتى تفاقمت المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وفشلت الخطط التنموية للدولة العلمانية، ولم تجن الدول العلمانية شيئاً عدا التبعية للدول الغربية، كما تمخض عن هذه التبعية كثير من أنواع الهيمنة الاستعمارية غير المباشرة والتردي في الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وحتى هذا الحد كانت المدرسة التحديثية تفترض أن هذه التبعات والنتائج ما هي إلا مخلفات تاريخية يجب أن تطفو على السطح، حتى يتسنى تأسيس البنية التحتية الضرورية للمجتمع الرأسمالي ـ البرجوازي، وقيام المؤسسات الحديثة التي تستطيع أن تنهض بأنواع متطلبات الحياة جميعها.

وعلى العكس من هذا الطرح أخذت الأنماط التقليدية التي اعتبرتها المدرسة التحديثية في عداد الموتى تنبعث من جديد إلى الحياة مع حلول السبعينيات من القرن العشرين. وعلى رأس هذه الأنماط الاجتماعية ـ السياسية كان انبعاث العامل الديني وتفجر مشارب التيارات الإسلامية، وانخراط كثير من الطبقات الاجتماعية على اختلاف انتماءاتها الفكرية ومستوياتها المعيشية في كوادر تنظيمية تدعو إلى إعادة الحياة الإسلامية بصورة عملية – وتعمل على ذلك أيضاً – تمهيداً لقيام مجتمعات "إسلامية ـ سياسية" قادرة على المساهمة في برامج التنمية والتطور، وتتطلع إلى الصعود نحو القمة والقيادة العالمية مع بقية دول العالم المتقدم.

ولقد قام الغرب بقراءة هذه التطورات في العالم الإسلامي، وظهر كثير من الدراسات العلمية والإعلامية التي تحذر الغرب من "الغول"

القادم المتمثل بالإسلام وأتباعه، ومن الدراسات التي كان لها صدى كبير لدى صانعي القرار في الغرب تلك الدراسة التي قام بها هارير دكمجيان (Harir Dekemjian) **«الإسلام في ثورة»** (*Islam in Revolution*)[20]؛ إذ قام دكمجيان في هذه الدراسة باستقصاء عام لـ 91 منظمة وتجمعاً إسلامياً في الدول العربية، واستخلص أن 64 منها ظهرت مع نهاية الستينيات وبداية السبعينيات وأن حوالي 88٪ من هذه المنظمات تعد "راديكالية"، علماً بأن نطاق هذه الدراسة محصور بالعالم العربي فقط، فكيف إذن سيكون الوضع بالنسبة إلى العالم الإسلامي بأجمعه الذي تموج فيه التيارات الإسلامية بصورة كبرى وأكثر فاعلية من الشرق الأوسط؟!

إنه سؤال حيَّر المتخصصين، وأثيرت معه الدوائر السياسية في الغرب، فعلى صعيد الواقع نجد أن التيارات والأحزاب والجماعات الإسلامية أخذت تتوسع قواعدها الشعبية في دول العالم الإسلامي جميعها دون استثناء، وحتى في الدول الأخرى ذات الأقليات الإسلامية. كما أخذت هذه الجماعات تنسج شبكة عريضة من منظمات غير حكومية وفوق قومية، متحدية بذلك الخطوط الجغرافية والعرقية التي رسمها المستعمر في العالم الإسلامي عندما أراد أن يقضي على مفهوم الأمة الإسلامية، وفي الوقت نفسه متماشية بل بادئة في طريقها لما يطلق عليه اليوم بالعالمية أو العولمة، ولكن بدلاً من الاعتراف بهذه الحركات بوصفها ظاهرة عالمية، تم إطلاق وصف الإرهاب الدولي عليها، كما سنأتي على ذلك لاحقاً. ومن جانب آخر، أخذت هذه التيارات تتوسع سياسياً واقتصادياً وليس اجتماعياً فقط، فنجدها سياسياً قد دخلت الانتخابات في الدول الإسلامية

ذات الديمقراطية المحدودة، ونالت نتائج باهرة في منازلتها أعتى التيارات العلمانية النخبوية، أما اقتصادياً فإنها استطاعت أن تنشئ مجموعاتها المالية والخيرية والتنموية التي لم تنحصر في توزيع الخيرات، بل امتدت إلى استثمارها وتوزيع عوائدها. وهكذا بدأت هياكل هذه التيارات والجماعات الإسلامية تتضخم، مما دعا المؤسسات السياسية والعلمية في الغرب إلى أن تنظر بشك وحذر إلى ماهية ما هو قادم[21].

ومع هذه التطورات انشق أنصار المدرسة التحديثية في الغرب إلى صنفين: الأول، ينادي بضرورة أخذ الدين عنصراً أساسياً للتحديث، لأن لكل أمة علاقة خاصة بدينها، وأن لكل دين تأثيراً متبايناً عن غيره في أنصاره وأتباعه، وأن الدين الإسلامي له ما يميزه من باقي الديانات الأخرى؛ حيث إنه برهن على أنه ليس دين عبادة فقط، لكنه دين دولة أيضاً. ولقد سمي هؤلاء بأصحاب المنهج النقدي (Critical Approach)، أو أحياناً المنهج الملتزم (Literal Approach). ولهذه المجموعة تأثير محدود في الحياة السياسية والفكرية والسلوكية للغرب تجاه العرب والمسلمين، فيما يتبقى التأثير الأكبر - وبخاصة في مجالي الإعلام والسياسة - لأنصار التوجه الثاني الذين يسمون بأصحاب المنهج الدعائي (Propagandistic Approach) أو كما يطلق عليه أحياناً المنهج الموروث (Essentialist Approach)[22].

وقد أخذ أصحاب المنهج الثاني بالرجوع مرة أخرى إلى أدبيات المدرسة الاستشراقية، وبدؤوا يعزون فشل التحديث في العالم الإسلامي إلى طبيعة المسلمين والديانة الإسلامية غير المتطابقة مع الرأسمالية والديمقراطية، لذلك

يطلق عليهم أتباع المدرسة الاستشراقية الجديدة. ومع الأسف نجد أصحاب هذا الرأي هم المتنفذين في دهاليز الدوائر التشريعية والتنفيذية والعلمية في الغرب، ولقد استطاعوا أن يؤسسوا تصورات لا تختلف عن تصورات المدرسة اللاهوتية والاستشراقية في القرون الغابرة، بل يمكن اعتبارها الأخطر؛ حيث إنها لا تنطلق من بقايا أنقاض وأطلال الموروث الفكري القديم عن المسلمين، وإنما تتعداه إلى فضاء جديد يقضي باستحالة تلاقي الشرق الإسلامي مع الغرب، وعدم قدرة المسلمين والعرب على النهوض حضارياً ماداموا متمسكين بمعتقداتهم.

كما عدَّت المدرسة الاستشراقية الجديدة الإسلام وأتباعه خطراً على الإنسانية، يجب أن تتوحد ضده كل الدول والمجتمعات التي تؤمن بالحضارة والتطور والمسير نحو العالمية الرأسمالية التي يبشر بها الغرب، والتي غرس بذورها طوال القرون الأربعة الماضية، لذلك نشهد تركيزاً غير مسبوق على دعوة جديدة ينشدها المستشرقون الجدد، تعزف أنغامها على قيثارة العولمة (Globalization). وما العولمة بالشكل الذي يعرضه المستشرقون الجدد إلا شعار جديد لهدف قديم، وكلمة حق يراد منها باطل، ومستقبل مقلوب لماض أسود. وأفضل من عبر عن مكنون هذه الكلمة هو بنيامين باربر (Benjamin Barber) في إحدى مقالاته المنشورة في مجلة **أتلانتك** عام 1992 التي حملت عنوان «الجهاد ضد العالمية» (Jihad Vs. McWorld) والتي طورها كي تكون كتاباً عام 1995. وكلمة الماك وورلد (McWorld) تدل هنا على العالم الغربي، الذي تحف به التقنية والمشروعات الاقتصادية الكبرى وباقي مظاهر الرأسمالية. أما كلمة جهاد فهي تشير إلى أتباع "الأصولية الإسلامية" بالخصوص، الذين يحاولون جر العالم الإسلامي

نحو التقوقع والانحدار والتخلف حسب رأي الكاتب. فالدين وبخاصة الإسلام في تلك المخيلة المتخلفة والمكيال البخس معيار كتب له أن يكون ضد العالمية، وبما أن العالمية تنشد صالح البشرية فعلى دول العالم وشعوبه أن تقوم ضد أي خطر محدق بهذه المسيرة "الإنسانية".

إن الأسباب التي دعت باربر إلى تأليف كتابه المشار إليه تتمثل في التشجيع الذي حظيت به مقالته، وبخاصة من طرف ستيف وازرمان (Steve Wasserman) المسؤول عن مؤسسة كتب التايمز التي نشرت الكتاب. ويؤكد باربر أن دراسته هذه غير معنية بالإسلام بوصفه ديناً، وإنما بظاهرة الجهاد التي تقف نداً لظاهرة "الماك وورلد". ويقول إن الجهاد مصطلح يدل على ظاهرة التخلف والتقوقع وكل العوامل التي تقف ضد الديمقراطية والحداثة، وتتمثل في قوى التعصب والعنف. وفي المقابل فإن ظاهرة "الماك وورلد" تشير إلى الانفتاح الاقتصادي، وتؤمن بقوى السوق العابرة للقارات التي تحارب مفهوم السيادة بمعناه التقليدي، وتحارب كل ما من شأنه أن يحجّم دور أدوات العالمية والاتصالات. وبكلمات باربر فإن «الجهاد يسعى إلى سياسة الدم في سبيل إيجاد هوية خاصة، بينما يسعى الماك وورلد للربح الاقتصادي من دون دم»[23].

وعلى الرغم من زعم باربر أن الإسلام ليس هو المقصود بهذه الظاهرة فإنه لم يقل ما الذي دعاه إلى اختيار كلمة "جهاد" التي تحمل بالتأكيد دلالة خاصة عند المسلمين، إضافة إلى تداولها بصورة دعائية في العالم الغربي خلال فترة الثمانينيات؛ فلماذا مثلاً لم يختر المؤلف كلمة الصليبية (Crusade) أو الإنجيلية الجديدة (Neo-Evangelism) لوصف الظاهرة التي

يود دراستها ؟! وثمة ما يدعونا إلى الارتياب في حيادية الكاتب ومحاولته التنصل من العنصرية التي يود إخفاءها أو تغليفها بغطاء أكاديمي وموضوعي؛ ففي إحدى صفحات كتابه لم يستطع أن يُخفي ما بين ثناياه حيث قال ما معناه إنه على الرغم من أن الإسلام دين معقد ولا يتماثل مع الجهاد (يعني ظاهرة الجهاد حسب تعريفه)، فإنه (أي الإسلام) – تقريباً – لا يرحب بالديمقراطية، وعدم ترحيبه هذا بالديمقراطية يدعو إلى ترعرع حالات العقلية المغلقة ضد الحداثة كما يدعو إلى العزلة والعدوانية تجاه الآخر، تلك المواصفات التي لها مميزات الجهاد نفسها[24]. وإن لم نكن بحاجة إلى حجة للتدليل على عدم موضوعية باربر التي ادعاها في مقدمة كتابه، فإننا نكتفي بالإشارة إلى أن كلمتي "مسلمين" و"إسلام" قد وردتا 60 مرة تقريباً، بينما لم ترد كلمتا "مسيحية" و"مسيحيين" أكثر من 15 مرة تقريباً، أما كلمتا "يهودية" أو "يهود" فإنهما اختفتا بين طيات كتابه تماماً، فهل يستطيع باربر وناشر كتابه بعد ذلك أن يدعيا أنه كتاب موضوعي وغير موجه ضد المسلمين؟ إنه كتاب يفصح وبصراحة عن فحوى تعصب مرتهن بالماضي ولكنه قُدّم بلغة جديدة إطارها العام الحداثة والعولمة.

وعلى هذه الشاكلة أتى معظم المستشرقين الجدد بنواميسهم القديمة، وقادوا العالم الغربي نحو سياسات موجهة ضد الإسلام والمسلمين من جديد. ويبدو – من الضروري – أن نتعرف إلى بعض هؤلاء ومقولاتهم التي شكلت المحاور التثقيفية للمؤسسات الغربية وبعض المؤسسات الرسمية في الشرق، وعلى رأس هؤلاء يأتي إمام المستشرقين الجدد برنارد

لويس (Bernard Lewis)، الذي استند في منطقه إلى الخبرة التاريخية التي مر بها الغرب وأوربا بوجه خاص، ومن ثم يقيس عليها أحوال المجتمعات الشرقية. وبالتالي، فهو يعُد القيم الغربية بدهيات وحقائق للتقدم والحضارة، فمن كان قريباً منها فهو متحضر، ومن كان معارضاً لها أو بعيداً عنها في السلوك والاعتقاد فهو - بالضرورة - متخلف وخطر في آن معاً، وحتى إسقاطاته لقيمه الخاصة على فهم المسلمين لا تعني أنه يعالج فهم كل الظواهر الاجتماعية والسياسية لواقعهم من خلال المعايير الغربية جميعها، وإنما بصورة منقوصة ودونية. وعلى الرغم من أنه يرى أن المسلمين إذا أرادوا أن يتقدموا فعليهم احتذاء خطوات الغرب، فإنه يعود عن ذلك عندما يدرس سبب الثورات في المجتمعات العربية الإسلامية أو الأسباب التي تجعل من العرب مناهضين لإسرائيل؛ فيُرجع الأسباب كلها إلى مرجع واحد وهو أن المسلمين يكنّون توجهات متعصبة لا تمكّنهم من قبول الحداثة ولا تؤهلهم للتعايش السلمي مع غيرهم؛ وبذلك فإن ثورتهم ضد الغرب أو عداءهم لإسرائيل ما هما إلا تعبير عن الرغبة في العودة إلى القرون الإسلامية الأولى التي شهدت اضطهاد الأقليات الأخرى. وليس إلى هذا الحد فحسب، بل إن لويس يرى أن مفهوم الثورة عند المسلمين مغاير لما هو عند الغرب؛ إذ يعتقد في بحث له تحت عنوان «مفهوم الثورة في الإسلام» أن المسلمين يشتقون كلمة ثورة من "ثور" الجمل وأن المعنى تحوّل وفق الواقع التراثي لتاريخ الإسلام إلى أن حمل معنى كلمة التمرد. ومن خلال الربط بين هذين المفهومين يصوغ لويس في مخيلة قارئه معنى الثورة عند المسلمين المعاصرين عندما يتحدون الاستعمار والهيمنة الغربية، فثورة المسلمين أو العرب في الوقت الحالي أو معارضتهم لا تعني سوى

«نهوض جمل أهوج على شكل إنسان فاقد للعقلانية»! لذلك لا يرى لويس أي اتصال بين ثورة العرب أو المسلمين والمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فهذه الأخيرة ليست لها علاقة بالموضوع الذي ينشده المسلمون من ثورتهم التي هي تحرك غير عقلاني لا يتصل بمنطق[25].

لذلك فإنه يرى من خلال مؤلفات كثيرة له أن المسلمين خطر عظيم على الإنسانية مثل خطر ستالين وهتلر، وأن تنامي الإسلام ودوائره المرعبة أمر خطير لا يمكن السكوت عنه، لأن هذا التنامي في العالم الإسلامي من جهة وفي المجتمعات الغربية عن طريق زرع "الطابور الخامس" من جهة أخرى سوف يصنع خطراً محدقاً بالحضارة الغربية من الداخل والخارج. ثم يعظّم لويس من هذا الخطر ويقول إنه سيكتمل بحيازة المسلمين للسلاح النووي، حيث تأتي نهاية الغرب والعالم؛ فحيازة هذا السلاح يجب ألا تكون بيد متعصب جاهل وغير عقلاني كالمسلم. ويستطرد لويس ويدعو إلى وضع خطة استراتيجية لقمع المسلمين محلياً وعالمياً بحيث يغض الغرب نظره عن النواحي الأيديولوجية والأخلاقية الخداعة مثل الحريات الأساسية، لأنها ستكون بمنزلة المصيدة الذاتية. وبهذا فإنه ينبغي علينا، كما يقول، تجاوز مثل هذه الشعارات عند التعامل مع هذا الخطر القادم. ومع أن لويس كان دائماً يفضل النموذج التركي، الذي يعده أكثر ملاءمة للعرب وللمسلمين، فإنه بعد انتصار حزب الرفاه الإسلامي بالأغلبية على الأحزاب العلمانية الأخرى في الانتخابات التشريعية عام 1996، لم يتوان البتة عن تغيير رأيه في مقالة له نشرت مؤخراً، يعبر فيها عن استيائه من

النتائج الانتخابية في تركيا، والتي جعلته يتوصل إلى "حقيقة مطلقة" مفادها أن الديمقراطية والإسلام برزخان لا يمكن أن يلتقيا![26].

أما بول جونسون صاحب المؤلفات الكبيرة عن الأديان وبخاصة المسيحية واليهودية، والذي يعد أحد الأقطاب الرئيسية في مدرسة لويس نفسها فيعتقد أن انتصار الرأسمالية على الشيوعية يجب أن يكون البداية نحو العالمية الليبرالية، وأن الشعوب التي ترفض ذلك يجب أن تقبلها عنوة. وأهم ما يدعو إليه هذا الرجل هو العودة إلى الاستعمار ونظام الانتداب، فهو لا يجد حرجاً في القول صراحة إن الإمبريالية الغربية هي الوحيدة الكفيلة بسعادة العالم واستقراره، ويرى أن تأسيس هذه الإمبريالية يجب أن يكون من خلال رسم هيكلية جديدة للأمم المتحدة، يتم بموجبها أولاً التخلص من "المتغطرس والعنيد" بطرس غالي (ولقد تم ذلك بالفعل)، ومن ثم جلب القوى الليبرالية الأخرى إلى مجلس الأمن كاليابان، وبعد ذلك يجب أن يتم تعديل مفهوم الأمن الجماعي عن طريق إنشاء قوة تدخل سريع للقوى الليبرالية. وبالإضافة إلى ما سبق، يجب أن تعمل الدول الليبرالية على إحياء نظامي الوصاية والانتداب اللذين اعتبرهما منهجين ناجحين من النواحي العملية فيما عدا حالة واحدة، وهي عندما ارتكبت بريطانيا جرماً تحت غطاء الانتداب بحق الحركة الصهيونية حينما رفضت ممارساتها ضد الفلسطينيين قبل قيام الدولة العبرية عام 1948![27].

ويصف جونسون صدام حسين بالشيطان كما يصف الصين بـ «صدام مضاعفاً أربعين مرة»، ثم يعود ليناقض نفسه ويقول إننا في الغرب يجب

أن نتعاون مع الصين ونشركها معنا في النظام الدولي القادم، وهو ما يدلل على أن كلمة شيطان لا تعني بالضرورة شيئاً سيئاً ومستنكراً من النواحي المبدئية والعلمية عنده. وهنا يدلل جونسون - دونما دراية بحقيقة الغرب التي لا تظهر إلا من خلال ما يبيحه العقل الباطن - على أن التعامل مع الشياطين لا يكون وفقاً للمبادئ، ولكن تبعاً للمصلحة المادية فقط. وإذا كان الأمر كذلك فقد يتحول صدام بنظر الغرب يوماً ما، ولعله قريب، إلى "الشيطان والملاك" في آن معاً. فإذا كان الغرب يحث على التعامل مع أربعين شيطاناً فما المانع من أن يتعامل مع الشيطان صدام إذا قام هذا الأخير بالتعهد بخدمة المصالح الأجنبية والغربية ضد الخطر المحدق المتمثل في التيار الإسلامي وتتم تسميته بعد ذلك بـ "الشيطان التائب"؟! وهذا المنطق يكشف عن الأسباب التي دعت الغرب إلى دعم صدام قبل غزوه لدولة الكويت على الرغم من معرفتهم به.

وبهذا فإن المدرسة الاستشراقية الجديدة وأتباعها لا يدعون إلى تبني القوالب التصورية البائدة التي روج لها اللاهوتيون في القرون الوسطى فحسب، بل يتمادون إلى أبعد من ذلك عبر التشكيك بقدرة المسلمين على فهم دينهم. وبموجب هذه الرؤية فإنه يتعين على المسلمين أن يجدوا من يشرح لهم الإسلام ويقدمه لهم بالصورة الصحيحة الحضارية (طبعاً التي تتلاءم ومصالح الغرب). فهذا دانييل بايبس (Daniel Pipes) في كتابه «**على درب الله**» يتحدث عن الإسلام بوصفه ديناً لا يفهمه المسلمون "المتعصبون"، بل من يفهمه هم المستشرقون ومن اتبع سنتهم. والمتعصبون هنا يعني بهم من يعارضون الرؤية الغربية، والذين يقومون

- حسب رأي بايبس - بتقديم تفسير خطأ وخطر للإسلام بشكل يهدد مصالح الغرب والعالم. وبناءً عليه يدعو بايبس العلماء والمتخصصين المستشرقين في الغرب إلى تقديم فهم جديد للإسلام، يتناسب والحياة "العصرية" التي ينشدها الغرب. وبطبيعة الحال فإن العصرية عند بايبس تعني التغريب، وإن كل من يعارض نمط الحياة الغربية وتبعياتها السياسية فإنه يدخل في عضوية جوقة المتعصبين الذين لا يرمون إلا إلى أمر واحد وهو تهديد راحة الغرب وتعكير صفو انتصاره على الشيوعية العالمية[28].

ويتضح بجلاء من خلال استقراء مفاهيم بايبس وغيره من المستشرقين الجدد مدى الترابط بين مفاهيم المدرسة الاستشراقية التقليدية ومدرسة التحديث، ليتمخض عنهما مدرسة الاستشراق الجديدة التي تقوم أعمدتها الفكرية على ثلاثة محاور: تهديد المسلمين المتعصبين، وحتمية انتصار التغريب، والحق الإسرائيلي. والإشكالية هنا لا تقع في ظاهر الكلام الذي يحمل احتقاراً لإمكانية المسلمين، ولكنها تقع في أمر أبعد من ذلك يتجسد في عدم قدرة المسلمين على تمثيل أنفسهم، مثلما يقول إدوارد سعيد: وبهذا المنطق فإن بايبس يفصح عن فكرة خاصة، لم يطرحها بصورة مباشرة تتعدى ما أشار إليه ظاهرياً، وتتعلق بعدم قدرة المسلمين على تمثيل أنفسهم وإدارة شؤونهم بأنفسهم، ومن ثم على الغرب أن يتولى ذلك عنهم، حتى في أمور دينهم وليس دنياهم فقط. وبذلك قد أوجد بايبس المسوغ الأخلاقي والأيديولوجي للتدخل في شؤون المسلمين في محاولة يائسة، بحيث لا يتناقض ذلك مع مبدأ حق تقرير المصير الذي طالما روج له الغرب[29].

وبهذا التصور المهجن بين اللاأخلاقية واللاموضوعية والنظرة الدونية إلى الآخر تتضح معالم صورة العرب والمسلمين التي ترسمها المدرسة الاستشراقية الجديدة؛ فالعرب والمسلمون غير عقلانيين، والإسلام لا يمكن أن تنمو من خلاله ديمقراطية، وأتباعه غير قادرين على إدارة شؤونهم بأنفسهم، وعلى رأس تلك الصفات كلها يُعتبرون خطراً قادماً على الحداثة والسلم الدولي، وبناءً على ذلك يجب على الغرب أن يعود إلى نظام الإمبريالية أو الانتداب أو تحت أي مسمى آخر بحيث يبقى هذا الخطر في "قمقمه".

ولو قمنا بتشريح المدرسة الاستشراقية الجديدة - إن جاز التعبير - لوجدنا أمرين في غاية الأهمية: الأول، أن أكثر المنتمين إليها إما من اليهود الصهاينة وإما من مناصريهم؛ إذ لا يوجد - حسب اطلاعي - أي مستشرق جديد تابع للمنهجين "الدعائي أو الموروث" لا يؤيد الصهيونية والدولة العبرية. والأمر الثاني، أن مفهوم الخطر وموضوعه بالنسبة إلى أتباع تلك المدرسة يتجسد في الخطر من الإسلاميين، وأن هذا الخطر موجه بالدرجة الأولى ضد إسرائيل، وبما أن إسرائيل تعد عاصمة الغرب الأبيض الديمقراطي في الشرق الأوسط الأسود الاستبدادي فإن هذا الخطر موجه ضد الغرب بل ضد العالم بأسره. وهذا بالفعل ما صادق عليه المعلق الإسرائيلي داني روبنشتاين (Dany Rubinstein) الذي قال: «في الماضي كان المستشرقون الأوربيون المسيحيون هم الذين يزودون الثقافة الأوربية بالحجج اللازمة لاستعمار الإسلام وقهره ولقهر اليهود وتحضرهم، أما اليوم فإن الحركة القومية اليهودية هي التي تنتج كادر المسؤولين

الاستعماريين. وأطروحاتهم الأيديولوجية عن الذهن الإسلامي أو العربي هي التي تطبق في إدارة العرب الفلسطينيين، وهم أقلية مقهورة ضمن الديمقراطية الأوربية البيضاء التي تدعى إسرائيل»[30].

ويؤكد نتيجة روبنشتاين الباحث الأمريكي آرثر لوري (Arthur Lowrie) في دراسته «الحملة ضد الإسلام والسياسة الخارجية الأمريكية» التي استعرض من خلالها أسماء بعض المتخصصين والمعلقين الصحفيين من أمثال مورتايمر زكرمان (Mortimer Zuckerman)، وفرجوس برودرويتش (Fergus Borderwich)، وروبرت ستالوف (Robert Staloff)، ودانييل بايبس (Daniel Pipes)، وأموس بيرلموتر (Amos Perlmutter)، وولتر جودمان (Walter Goodman)، ولسلي جيلب (Lesli Gelb)، وديفيد هارتمان (David Hartman)، ويهوشفاط حركابي (Yehoshhafat Harkabi)، وستيفن هولمز (Steven Holmes)، وروبن رايت (Robin Wright)، وأخيراً وليس آخراً، مارتن كرامر (Martin Kramer) الذي قال عنه آرثر لوري في بحثه: «إنه بروفسور إسرائيلي، وجد نفسه في موقع شاذ كي يقول للحكومة الأمريكية نيابة عن أكثر المؤسسات قوة في واشنطن، إنه يجب ألا تقوم الحكومة الأمريكية بإعطاء تأشيرة الدخول للأجانب الذين لا يتفقون مع السياسة الخارجية لأمريكا وإسرائيل»[31]. وبالفعل لقد أخذت الحكومة الأمريكية بهذه النصائح ولم تتح لبعض أعلام الفكر الإسلامي الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتحاور مع أقرانهم في قضايا أكاديمية بحتة حول علاقة الإسلام بالغرب[32]. كما أن هناك اعترافات لبعض المسؤولين في الخارجية الأمريكية، تؤكد أن سياسة بلدهم تأثرت - إلى حد كبير - بنزاع إسرائيل مع الإسلاميين[33].

ويتجلى هذا الربط العضوي بين مفهوم الخطر وموضوعه (وهو المسلمون) في كتابين رئيسيين، طرحا الخطر الإسلامي الموجه بالدرجة الأولى ضد إسرائيل، ومن ثم ضد العالم "المتحضر" بأسره: الأول، كتبه شمعون بيريز تحت عنوان «**الشرق الأوسط الجديد**» *(The New Middle East)* حيث يقول في إحدى صفحاته: «نشهد اليوم بعثاً للإسلاميين، يتصف بالمعارضة للقيم والثقافة الغربية والتراجع عن الحداثة، والدعوة إلى ممارسة العنف لإنشاء جمهورية إسلامية انفصالية»[34]. وعلى الرغم من أن بيريز رجل سياسي من الدرجة الأولى ولا ينتمي إلى المدرسة الاستشراقية بهيئتها الأكاديمية، فإنه قد استند في معظم آرائه عن الإسلام إلى صهيوني آخر اسمه إمانويل سافيان، الذي ألف كتاب «**الإسلام الراديكالي: لاهوت القرون الوسطى والسياسة الحديثة**» *(The Radical Islam: Medieval Theology and Modern Politics)*[35]. وهذا الارتباط بين الاثنين يشير إلى دلالة لا يشوبها الشك في تلاقي توجهات السياسة الغربية العامة ضد العرب والمسلمين مع مؤسسات الاستشراق التي تشكل البنية المعرفية التحتية للفعل السياسي إزاء العرب والمسلمين بشكل عام. وعندما تفحصنا آراء سافيان، من جهة أخرى، لم نجد إلا آراء المستشرقين التقليديين، الذين تمت الإشارة إليهم، والذين عَدوا الإسلام ديناً لا يأخذ بالتحديث ولا يمكنه أن يكون ديناً للعقلانيين، أو للذين يؤمنون بالديمقراطية وحق الاختيار الحر.

ويستطرد شمعون بيريز في كتابه، وبناءً على المعرفة الاستشراقية المسبقة، ليتوصل إلى نتيجة مفادها أن الديمقراطية لا يمكن أن تطبق في

الشرق الوسط، لأنها سوف تأتي بنتائج عكسية؛ إذ إن الإسلاميين سوف يفوزون بها ويأخذون زمام السلطة السياسية بموجب قنوات لا تلائم طبيعة الدول العربية والإسلامية والظروف المحيطة بها. وعليه فإنه يعتقد أن الغرب يجب ألا يشجع الديمقراطية في هذه الدول؛ لأنها سوف تأتي بمجموعات معادية لإسرائيل. وعلى العكس من ذلك فإنه يجب على الغرب - حسب اعتقاده - أن يعمل مع النخب السياسية التي تهادن إسرائيل بغض النظر عن شرعيتها السياسية.

والكتاب الثاني الذي نرى أن مراجعته مفيدة في هذا الصدد هو كتاب رافائيل إسرائيلي (Raphael Israeli)، رئيس قسم الدراسات الآسيوية بالجامعة العبرية، ويحمل عنوان **«الأصولية الإسلامية وإسرائيل»** *(Fundamentalist Islam and Israel)*. ويربط إسرائيلي من خلال كتابه بين التهديد الإسلامي لإسرائيل وتهديد أمن العالم "المتحضر". ولو تتبعنا قراءة الكتاب لوجدناه يبتدئ بفرضية مسلمة لديه تتمثل في قيادة إيران للأصولية الإسلامية التي تؤمن بالعنف، ثم بعد ذلك يبين آراء بعض الإسلاميين وتعارضها مع القيم والمفاهيم الغربية المتحضرة. وينتقل بعدها ليدلل من الواقع على مدى خطورة التيار الإسلامي على بعض الدول العربية وإسرائيل بالذات، ويربط هذا التهديد باستقرار الدول الغربية التي يقول إنها تحتضن كثيراً من الأقليات المسلمة المتعصبة والمنظمة التي تسعى إلى تخريب المجتمعات الغربية، وتهدف إلى تحقيق "حكم ذاتي" لها في المستقبل عن طريق استغلالها للقيم الغربية مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات العامة، والتي ليس لها محل في العقيدة الإسلامية عند

هؤلاء المتعصبين. ويختتم كتابه بالقول إن الديمقراطية ليست صالحة للدول الإسلامية والعربية، وأنه «إذا أخذ مؤشر الأسلمة في الاستمرار مثلما حدث في انتخابات الأردن عام 1989 والجزائر عام 1991، فلا شك في أن السنوات المقبلة ستكون خطرة على الاثنين: الغرب وإسرائيل»[36].

هذه المؤلفات وغيرها دعت كذلك بعض النقاد اليهود الإسرائيليين إلى ملاحظة نواقصها المنكشفة، فهذا حاييم بارام (Haim Baram) يقول ما مفاده أن قادة إسرائيل قاموا بربط التهديد الإسلامي (الكفاح الإسلامي) لإسرائيل بتهديد الغرب وأمن العالم المتحضر والإنسانية[37]، وغدت وسائل الإعلام الإسرائيلية والمتواطئة معها تروج لهذه الفكرة، فلم تعد ثقافة عامة فقط بل أصبحت سياسة عليا للدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ومن وحي هذه الكتابات الإسرائيلية-الصهيونية يستشف من كان له لُب مدى التزاوج الذي تم بين المدرستين الاستشراقية الجديدة والصهيونية اللتين تسعيان إلى نبذ كل ما هو إسلامي وتحطيمه عن طريق ربط التهديد الإسلامي لإسرائيل بالنظام الدولي الجديد*.

* تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى ضرورة التفريق بين بعض اليهود المستشرقين ذوي الميول الصهيونية مثل برنارد لويس وإمانويل سافيان ودانييل بايبس وأمثالهم من المستشرقين الآخرين، من حيث الدوافع الفكرية والسياسية حتى لو كانت النتائج والأفكار النهائية متماثلة مع نظرائهم. فالمدرسة الاستشراقية اليهودية مهجنة بالأفكار الصهيونية المعادية لكل ما هو متعارض مع مصالح إسرائيل السياسية، أما المدارس الاستشراقية الأخرى فهي وليدة التراث الاستعماري الذي أثاره الاحتكاك التاريخي بين الغرب والشرق بشكل عام والعرب والمسلمين بشكل خاص، وقد تم الالتقاء الحالي بين التيارين بفعل الالتقاء بالمصالح، أو بالأحرى بفعل دور وسائل الإعلام التي يسيطر عليها الصهاينة في العالم الغربي والتي تحاول أن تجعل من الإسلام والمسلمين خطراً دولياً على العالم بأسره، كما سيتضح ذلك في الصفحات المقبلة من هذه الدراسة.

وتحاول هاتان المدرستان أن تصورا للغرب والعالم أن هناك معادلتين متناقضتين، يجب أن يؤخذ بإحداهما: الأولى، عناصرها التطور والسلام وإسرائيل والغرب والأنظمة النخبوية غير الديمقراطية في العالم الإسلامي، أما الثانية فعناصرها الأصولية والتعصب والإسلاميون والعرب الأفغان والاستغلال الظاهري للقيم الغربية كالديمقراطية والحرية. وعلى العالم والغرب أن يأخذ بالمعادلة الأولى لأنها الأصلح والأمثل في عالم متناقض ومتضارب، لذلك نجد أن فكرة التهديد الإسلامي آخذة في التدويل والتشهير والتسويق، وأصبحت كلمة لها مدلولاتها الأدبية والسياسية والسلبية في معظم الوسائل الإعلامية العالمية. ومع الأسف تنطلي مثل هذه الدعوات التي طالما روج لها المحللون المستشرقون على كثيرين من الطبقة المثقفة في أرجاء العالم الإسلامي وخارجه، فنجد على سبيل المثال التبريرات الساذجة لترويج المشروع "السلمي" مع الكيان الصهيوني، ونجد أيضاً من يشجب أعمال المقاومة اللبنانية والفلسطينية المشروعة ضد المحتل، ويعدها ضرباً من ضروب الإرهاب، بينما يغض طرفه عما يفعله الصهاينة بلبنان وفلسطين.

مراكز الفكر والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين

ومع انتشار أفكار المدرسة الاستشراقية الجديدة ومفاهيمها ووجود العدد الكبير من المؤسسات العلمية الغربية ومعتنقي الأفكار الغربية في مختلف أنحاء العالم، عاد الغرب إلى تناقضاته السياسية مع أيديولوجيته المعلنة مرة ثانية بل ثالثة، ولكنها هذه المرة بدت تناقضات بائنة على الرغم من تسترها بمكنون "النظام الدولي الجديد". ولنا مع هذه التناقضات وقفة

تأمل وتفكر بعد الاستعراض السريع الذي قدمناه لتصورات المدرسة الاستشراقية الجديدة وعلاقاتها بالمدرسة والدوائر الصهيونية العاملة في الغرب، لنتعرف على علاقة هذه التصورات النظرية بالسياسة الخارجية للغرب تجاه العالمين العربي والإسلامي. ولنبين كيف وقعت الدول الغربية في سياسات متناقضة مع المبادئ التي تنادي بها مثل المساواة وحرية الرأي والفكر والاعتقاد والديمقراطية، نتيجة لتبنيها للأفكار المحرفة التي يروج لها المستشرقون الجدد ومن يسير على نهجهم.

مثلما كان هناك ارتباط للدولة الدينية المسيحية بالرؤية والنظرية اللاهوتية عن المسلمين إبان القرون الوسطى، مما قاد إلى الحروب الصليبية، ومثلما كان هناك أيضاً ارتباط عضوي بين المدرسة الاستشراقية التقليدية والدول الغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والذي تجلت معالمه في سياسة الاستعمار الأجنبي للشرق وللمجتمعات والدول الإسلامية، فإنه ليس بغريب أن يكون هناك اتصال لتصورات المدرسة الاستشراقية الجديدة بالسياسة الغربية المعاصرة تجاه العرب والمسلمين. هذا الاتصال الذي هو بمنزلة الترابط بين المعرفة والسلطة يتمثل في العلاقة الحميمة بين النخب السياسية الحاكمة في الغرب مع ما يسمى بمراكز البحوث، أو كما يطلق عليه بالإنجليزية (Think Tanks).

ومن المعروف أن معظم هذه المراكز تقوم بخدمات إعلامية وفكرية لمتخذي القرارات في كثير من الدول وبخاصة في الغرب، ففي الولايات المتحدة الأمريكية يوجد أكثر من ألف مركز بحثي، يقع ما يقارب 102 منها في العاصمة السياسية واشنطن، مثلما جاء في كتاب «**سماسرة الأفكار**»

لجيمس آلان سميث (James A. Smith)[38]. وتقوم هذه المراكز أحياناً بدور ضاغط على متخذ القرار السياسي نحو غايات تخدم الرأي الذي "يدفع أكثر"، أو الذي يكون مسيطراً عليها مالياً وإدارياً.

وبما أن كثيراً من هذه المؤسسات البحثية تعد مراكز نفوذ واسعة داخل نطاق الهياكل والدوائر البيروقراطية والدعائية، فإن دورها لا يستهان به مطلقاً في تغيير سلوك الآخرين حسب أهداف القيمين عليها؛ فعمل كثير منها على هذا النحو إنما هو بمنزلة الأخذ بناصية العقول نحو اتجاهات وتوجهات مبرمجة سلفاً. ومثال ذلك مركز السياسة العامة والأخلاق الذي أنشئ عام 1976 برئاسة إرنست ليفر (Ernest Leyever) الذي يقول عن هدف مؤسسته: إنها تريد أن توضح وتعزز الروابط بين التقاليد الأخلاقية اليهودية ـ المسيحية ومشكلات السياسة الخارجية والداخلية[39]. وبناءً عليه، فإن هذا المركز لم يتم إنشاؤه ليتقوقع داخل دائرته الاجتماعية التوعوية فقط، بل ليقوم بدفع العجلة السياسية إلى نهايات مرسومة أيديولوجياً ومصلحياً.

ومن المؤسسات البحثية الكبرى والمعروفة بتوجهاتها الإعلامية ضد العرب والمسلمين مؤسسة برادلي (Bradley Foundation) في مدينة ملواكي، التي قامت بتمويل أكثر البرامج التلفزيونية استفزازاً ضد الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية وهو برنامج "الجهاد داخل أمريكا" لستيفن إمرسون (Steven Emerson)، إذ دفعت هذه المؤسسة 325 ألف دولار هبة لدعم هذا البرنامج المنحاز، والذي أثار كثيراً من المشكلات في الولايات المتحدة الأمريكية. كما قامت هذه المؤسسة بتمويل كتاب روبرت كابلان

(Robert Kaplan) الذي حمل عنوان «**المستعربون**» (*The Arabists*). ومن المعروف عن كابلان مواقفه المتعصبة ضد العرب وتأييده التام لسياسات إسرائيل، مما جعله عنصراً مرموقاً داخل وزارة الخارجية الأمريكية بدعم من اللوبي الصهيوني.

كما تقوم هذه المؤسسة بإصدار دورية **ميدل إيست كوارترلي** (*Middle East Quarterly*) المؤيدة لإسرائيل والتي توزعها قنصلياتها بالمجان على الملحقيات الدبلوماسية الأخرى والمعاهد الأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الجدير بالذكر أن الذي يشرف على هذه الدورية هو دانييل بايبس مؤلف كتاب «**على درب الله**» الذي تمت مناقشته سابقاً[40]. وعلى هذه الشاكلة يسير كثير من المراكز البحثية الأخرى، كمؤسسة راند ومعهد كاتو ومركز الدراسات الاستراتيجية والدولية الملحق بجامعة جورج تاون ومعهد الدراسات السياسية وغيرها من المراكز الأخرى المتناثرة في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي لها علاقة مع كثير من المعاهد والمؤسسات الأكاديمية والسياسية في العالم، وسوف نرجع إلى الحديث عنها بتفصيل لاحقاً.

وبالإضافة إلى هذه المراكز البحثية يوجد عدد كبير من المؤلفين الروائيين والمنتجين السينمائيين الذين يقومون بتقديم الثقافة الاستهلاكية لكثير من القطاعات الشعبية والطبقات الاجتماعية المختلفة في الغرب. ومن هذه الأعمال رواية «**الخروج**» للكاتب الروائي ليون يوريس التي تعد القالب النموذجي للروايات الأمريكية في العصر الحديث القائمة على موضوعات شرق أوسطية، وقد حولت إلى فيلم سينمائي فيما بعد، ويقول عنها ميخائيل سليمان إنها رواية لا تخرج عن النظرة السلبية التي أسسها

المستشرقون التقليديون واللاهوتيون الأوائل عن العرب والمسلمين[41]. هذا بالإضافة إلى ترويجها لسياسات الدولة العبرية من خلال إنكار حقوق الشعب الفلسطيني وترسيخ الصورة السلبية عن المسلمين والعرب ووصفهم بالكسالى والقذرين والمتخلفين وإلى غير ذلك من أوصاف تخدم في النهاية ضمان تأييد القارئ الأمريكي للصهيونية وللأعمال العدائية التي تقوم بها إسرائيل. وكذلك الحال بالنسبة إلى رواية «**انعطاف في الجدول**» لـ ف. ينبول، الذي اقتبس مادتها عن العرب والإسلام من التصورات البائدة المثيرة للاشمئزاز لدى القارئ الغربي، هذا فضلاً عن اتهامه الشعوب الأفريقية والآسيوية بأنها ذات إخفاق فكري، ساهم الإسلام في تكوينه[42].

وفي السياق نفسه يأتي المشروع السينمائي من خلال منظومة هوليوود، ليضفي نكهة تصورية أخرى يختلط فيها الواقع مع الخيال لصنع انطباع جماعي عن تماثل الفلسطينيين والعرب مع الهنود الحمر الذين كانوا السكان الأصليين للقارتين الأمريكيتين، ولكن بسبب جهلهم وكسلهم لم يكونوا مؤهلين لبناء الدولة الحضارية الحديثة، لذلك فإن هناك مبررات أخلاقية لاستبدال شعب آخر بهم، قادر على أن يؤدي الرسالة اليهودية التي - بدورها - تستطيع أن تهيئ "لظهور المسيح" في نهاية التاريخ[43].

وعلى النحو نفسه تدق نواقيس الصحافة الغربية سمفونية "الإسلام وأتباعه المتخلفون". ففي رسالة دكتوراه أعدها ميشيل آرثر دوس (Michael Arthur Dohse) تحمل عنوان «**الدوريات الأمريكية والمثلث الفلسطيني من إبريل 1936 إلى فبراير 1947**» *(American Periodicals and the Palestine Triangle, April 1936 to February 1947)* وجد

أن المجلتين اللتين حلل مضمونهما - وهما مجلتا **نيشن** (*Nation*) و**نيو ريبلك** (*NewRepublic*) الليبراليتان، والمعروف عنهما مناهضتهما للاستعمار الإنجليزي والفرنسي على وجه الخصوص - تعتبران الاستعمار الصهيوني لفلسطين استعماراً أخلاقياً![44] ولا تخرج عن هذا الطرح المنحاز معظم الصحافة الغربية عند تناولها الصراع العربي-الإسرائيلي أو أي قضية أخرى تخص العرب والمسلمين.

وعلى الرغم من التغير الإيجابي الطفيف الذي طرأ على الصحافة الغربية بعد الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 وقيام الانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة عام 1987، فإن النمط العام والسائد في أمهات الصحف الغربية ظل غير محايد. ولقد تناول إدوارد سعيد في كتابه «**تغطية الإسلام**» (*Covering Islam*) موضوع الإعلام الغربي إزاء العرب والمسلمين، ووصل إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها ميشيل آرثر دوس قبل أكثر من ثلاثين عاماً، بل إن سعيد ذهب إلى القول إنه بعد حرب عام 1973 وحظر النفط وقيام الثورة الإسلامية في إيران وتنامي الصحوة الإسلامية في العالم أخذت الصحافة الغربية وبخاصة الأمريكية طابعاً منحازاً بشكل كبير، يتماشى مع العروض والقوالب الفكرية التي تسكبها المدرسة الاستشراقية المعادية للعرب والمسلمين[45].

ولقد أصبحت الشهرة في الوسائل الإعلامية السمعية والبصرية مكفولة للنخب التي تدعم هذه التصورات المغلوطة من دون مساءلتهم - ولو علمياً - عما يكتبون أو يقولون أو يصورون من مشاهد ضد العرب والإسلام تخل بالمبادئ الإنسانية الأساسية التي يتبجح بها الغرب وكثير من

علمانيي الشرق، وبخاصة الذين تحمست أقلامهم وبُحَّت حناجرهم تبشيراً للغرب وتخويفاً وترهيباً من الإسلاميين أو القوميين كافة بغض النظر عن أطروحاتهم المعتدلة.

إن الهدف المنشود لهذا الإعلام المغلوط هو توصيل المتلقي في العالم إلى اعتقاد أن الصحوة الإسلامية لا تمثل فقط الرجوع إلى البدائية والقرون الوسطى، بل إنها محاولة لتحطيم النظام الديمقراطي الذي بناه الغرب وإنها خطر على الإنسانية جمعاء. فإذا كان الصحفي والمؤلف والمخرج السينمائي يخدم هذه المقولة فإن الشهرة سوف تكون من نصيبه دون أي مساءلة جدية عما جاء به مضمون ما يقوله أو يكتبه أو يصوره.

والنماذج كثيرة لمثل هذه التصورات والأقاويل الصحفية "المحرَّفة" والمفتقرة إلى الموضوعية. ونذكر على سبيل المثال العناوين التالية التي ظهرت في أمهات الصحف الغربية في الآونة الأخيرة: «التهديد الأحمر ذهب، ولكن هذا هو الإسلام»[46]، و«نهاية الغفران» التي يدعو كاتبها إلى وجوب إعلان حرب "مقدسة" للقضاء على الإرهاب الشرق أوسطي، ويعني طبعاً المعارضة للمسار الإسرائيلي-الأمريكي بالمنطقة[47]. وتكتب لسلي جلب (Leslie Gelb) في صحيفة **نيويورك تايمز** أيضاً أن الإسلام لا يعترف بالتعايش السلمي مبدأ أساسياً، لأن هذا المبدأ يتعارض والفهم الإسلامي للنظام الدولي[48]. ولم تقدم كاتبة المقال ما يفيد أو يسند ادعاءها، لأنها تعتبره من المسلمات، لذلك فلا داعي لتقديم الدليل. أما ريتشارد كوهين (Richard Cohen) الكاتب في صحيفة **إنترناشيونال هيرالد تريبيون** فكتب تحت عنوان «إذا كان الشيطان اليوم في موطننا»: إن

الإسلاميين والعرب المتطرفين اليوم يحظون بمكانة في بلداننا الغربية وتحت حماية القانون، وهؤلاء يجب اتخاذ أقصى العقوبات بحقهم لكونهم يعملون ضد الحضارة الغربية، ويحاولون تقويض مكانتنا الدولية[49].

وبعد تفجير مبنى أوكلاهوما سيتي في الولايات المتحدة الأمريكية اعتبر بعض الصحفيين أن المسلمين هم المتسببون بالتفجير من دون حاجة إلى إظهار الدليل الدامغ، بل بالاستناد إلى إشاعات؛ فلقد ادّعت صحيفتا **نيويورك تايمز وإنترناشيونال هيرالد تريبيون** بعد وقوع التفجير أن هناك شهوداً على خروج رجال من أصل شرق أوسطي من المبنى قبيل الانفجار[50]. وبطبيعة الحال فإن خبراً كهذا يشير بالبنان إلى العرب والمسلمين مما قد ينعكس على مجريات التحقيق في الوصول إلى الفاعلين، إضافة إلى شحن الرأي العام ضد العرب والمسلمين الذين يعيشون في الغرب. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب، بل ظهر ستيفن إمرسون الكاتب والمعد التلفزيوني المناصر لإسرائيل علناً في برنامج «كروس فاير» في محطة "السي إن إن" (CNN) مباشرة بعد وقوع الانفجار، وقال إن هذا التفجير يتشابه مع تفجير مركز التجارة العالمي وتفجير السفارة الإسرائيلية في بيونس أيرس بالأرجنتين، وهما اللذان قامت بهما جماعات إسلامية، واسترسل في حديثه دون تردد قائلاً إن هذه الأنواع من التفجيرات تهدف إلى قتل أكبر مجموعة من الناس، وإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعرف مثلاً لهذه الأنواع الإرهابية إلا بعد الإرهاب الإسلامي الذي يحاول الاختفاء تحت مسميات مشروعة في مجتمعنا[51]. ولا غرابة في أن نجد مثل هذه المقالات الصحفية تتشابه مع تلك التي تصدر في

الصحافة الإسرائيلية، مثل مقالة مارتي شيرمان في صحيفة **جيروزالم بوست**، التي كتبت فيها أن هناك حرباً عالمية ثقافية تقع بين الإسلام والليبرالية الغربية، وأنها حرب تتشابه مع حرب الغرب ضد الشيوعية والنازية[52].

أما جوديث ميلر (Judith Miller) الصحفية الذائعة الصيت في صحيفة **نيويورك تايمز**، ففي بحثها «تحدي الإسلام الراديكالي»[53]، تقول في جوابها عن سؤال: ماذا ينبغي على الولايات المتحدة الأمريكية عمله ضد الحركات الإسلامية؟ إن على الولايات المتحدة أن تتخذ موقفاً موحداً ضد كل هذه الحركات قاطبة دون الفصل بينها، حتى لو ظهر أن بعضها معتدل ولا يعارض الديمقراطية، لأن جميع الحركات الإسلامية من دون استثناء تعارض في حقيقتها الليبرالية الغربية وحقوق الإنسان من "النواحي العملية". ولا نعرف ما الذي تقصده بالنواحي العملية، فهل تقصد باستخدامها هذا المصطلح خوض بعض الحركات الإسلامية المعترك الديمقراطي سلمياً مثل حزب الرفاه في تركيا أم إنها تقصد في حقيقة الأمر أن هذه الحركات لا تذعن من النواحي العملية إلى أوامر الدول الغربية؟! كما تصف ميلر الإسلاميين قاطبة بأنهم جماعة من الرجعيين والدكتاتوريين، لأنهم رفضوا وعارضوا كتاب سلمان رشدي «**آيات شيطانية**»، وتعتبر ذلك هدراً لحقوق الإنسان، بينما لا تعير أي اهتمام لما اقترفه رشدي من ذنب بحق مليار مسلم.

وتشن ميلر نقداً لاذعاً للإسلاميين، لأنهم يعارضون السلام مع إسرائيل، ولا تكيل بالميزان ذاته عندما تتحدث عن بنيامين نتنياهو الذي

رفض اتفاق أوسلو وما تفرع منه من اتفاقيات، وكذلك قرار الأمم المتحدة رقم 242، وبينما تنتقد ميلر البروفسور جون إسبوزيتو الذي يطرح فكراً واقعياً عن الحركات الإسلامية، لأنه يقول بتنوع الحركات الإسلامية وينادي بوجوب دعم المعتدل منها وإجراء حوار معه، فإنها تصفق بحرارة لمارتن كارمر الأستاذ الإسرائيلي الذي يطالب باتخاذ موقف عدائي ضد الحركات الإسلامية جميعها والمعروف عنه تصلبه ضد العرب والمسلمين. وبينما ترفض ميلر حديث بعض المتخصصين في الشرق الأوسط فإنها تعد أن مرجعيتها الأولى تتمثل في برنارد لويس ذي الأفكار المتطرفة ضد الإسلام، كما أوضحنا ذلك من قبل.

ولم تقف ميلر عند حدود بحثها المشار إليه، بل تعدته إلى تأليف كتاب **«أسماء الله الحسنى الـ 99»**، الذي أوردت فيه جميع أصناف المغالطات التاريخية والفكرية والأكاديمية. فعلى حد تعبير إدوارد سعيد فإن لكتاب ميلر هذا «دلالات وغايات لإلحاق الهزيمة بكل شيء اسمه مقاومة لإسرائيل ولأمريكا، سواء كان قومياً أو إسلامياً. . . إنه كتاب لا تجد فيه أكثر من طُرفة، ومعلومات لا تزيد على معلومات أي طالب جامعة في الصف الثاني»[54].

وعند تقييمنا للصحافة والإعلام الغربي والأمريكي على وجه الخصوص لا نجد حرجاً في القول إنه إعلام موجه من ثلة متنفذة، وإن بعض جموع الكتاب أو الجمهور قد لا يدركون أنهم متحيزون، مثلما يقول ميخائيل سليمان في كتابه الرائد **«صورة العرب في عقول الأمريكيين»**[55]؛ إذ قام سليمان بتحليل الصحافة والإعلام الأمريكي

تحليلاً كمياً، وخرج بنتيجة مفادها أنه إعلام يفتقر إلى الموضوعية ومدموغ بالصورة المقولبة للعرب التي قدمتها مدرسة الاستشراق ومن خلال العيون الإسرائيلية. وفي المقابل، إذا قامت أي وسيلة إعلامية أو أكاديمية بانتقاد اليهود فذلك يعني لهؤلاء المستشرقين ومؤيديهم دعوة عنصرية ضد السامية، التي أصبحت بمفهومها الجديد لا تحتمل معنى آخر غير اتباع الصهيونية وأنصارها.

فهذا روجيه جارودي الفيلسوف الفرنسي الذي بسبب كتابه «**الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**» مَثُل أمام المحاكم الفرنسية بتهمة الترويج لأفكار معادية للسامية والإساءة إلى اليهود من خلال تقديمه "تفسيراً خطأ للتوراة". ومن ضمن التهم الملصقة به أيضاً أنه لا يعتقد وجود غرف الغاز أو المحرقة (الهولوكوست) بالشكل الذي يبالغ في شأنه اليهود. وفي الوقت نفسه تقوم الصحافة في فرنسا بشن حملة كبرى للتشهير به دون أن يعطى "الحق في الرد"، فقد رفضت الصحف الكبرى جميعها طلبه في ذلك الحق، علماً بأنه حق مكفول للجميع في الصحافة الغربية والفرنسية بالذات، ولكنه ليس لمن يمس الصهيونية.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الشيخ أحمد رامي في السويد، الذي استند إلى مبدأ حرية الكلمة، وتحدث من خلال محطته الإذاعية «راديو الإسلام» عن الكيفية التي تناول بها الإنجيل قصص اليهود، فعد اليهود هذا العرض نوعاً من أنواع ممارسة العنصرية. ولقد مثُل الشيخ أحمد رامي أمام المحكمة بتهمة إثارة القلاقل ضد الجماعات "الإثنية"، ووجد أنه مذنب بـ18 تهمة وجهت إليه من قبل الجماعات اليهودية. وبعد إسناد التهم إليه أغلقت محطته الإذاعية، وحكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر[56].

وعلى الرغم من تحفظنا على بعض آراء الشيخ أحمد رامي وبخاصة السياسية منها، فإننا لا نرى في الحملة الإعلامية والرسمية ضده لمجرد عرضه بعض فقرات من الإنجيل الخاصة باليهود أي إنصاف ولا موضوعية ولا انسجام مع ما يتشدق به الغرب تحت غطاء الحرية الفكرية التي لم يكن لها محل في حالتي جارودي ورامي، بينما انبرت أقلام كثيرة، وتعالت صيحات رسمية وغير رسمية كبيرة عندما شجب الإسلاميون سلمان رشدي وآياته الشيطانية، فلقد عُد كتاب رشدي محمية غربية، وعملاً شجاعاً ومشروعاً لا يحق لأحد التطاول عليه، وهو الذي تقوّل على رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين، في حين لم يراع القانون الغربي مشاعر مليار مسلم، ولم ينظر المستشرقون والمناهضون للإسلام في حيثيات ما كتبه حتى من النواحي الأدبية والعلمية، إن كان في عمله أي أدب أو علم. فأين الغرب وأين المستشرقون من هذه وتلك؟! وأين الحرية الفكرية وحرية الاعتقاد التي مضت وكأنها سراب؟!

فالحريات بهذا السلوك لا تقدم إلا معنى أحادياً مفتقراً إلى تعددية، بحيث يصبح مفهوم الحرية هو ما يحدده الغرب، ولا شأن لنا عرباً ومسلمين من شعوب العالم الثالث أن نتدخل في مصداقياته أو جدلياته، بل يجب علينا أن نتبع ذلك المعنى الأحادي الذي يفرضه الغرب، والذي يغض طرفه عن الإرهاب الإسرائيلي الذي باعتراف صحيفة **الإندبندنت** البريطانية قد أغفل عنه النظر تحت ظروف التعتيم الإعلامي، ولكنها لم تتجرأ على تقديم تفسير واضح لمن يقوم بهذا التعتيم وأسبابه على الرغم من أمثلتها العديدة التي ساقتها عن نماذج الإرهاب اليهودي[57].

إن الأمثلة التي أوردناها بحق جارودي والشيخ أحمد رامي وسلمان رشدي لا تشير إلى الاختزال الإعلامي والعلمي فقط، وإنما إلى التطبيق المتناقض الذي تمارسه بعض الحكومات الغربية وصحافتها وبعض المتغربين من العرب والمسلمين، فنحن على الرغم من إيماننا بوجود الرأي المعارض، وبخاصة إذا كان مؤسساً على منهج مستنير، فإننا - بالتأكيد - نستهجنه قلباً وقالباً إذا كان ينضح بتبعية فكرية عمياء للغرب. إن هذا الغطاء الإعلامي هو في الحقيقة بمنزلة تعبيد الطريق الدبلوماسي لبعض الدول الغربية لاتخاذ سياسات عدوانية ضد بعض الدول العربية والإسلامية. فبينما لا ترى بعض الدول الغربية - وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها قوة عظمى - حرجاً في الضغط على بعض الأنظمة العربية والإسلامية التي تعارض التسوية السلمية مع إسرائيل من خلال استخدام حجج خاصة بحقوق الإنسان والديمقراطية، فإن هذه الدول ذاتها تتعامل مع أعتى الأنظمة دكتاتورية في العالم الثالث.

ومن جهة أخرى، نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص تقوم بالتعامل مع إسرائيل بمكيال يختلف عن تعاملها مع الدول العربية والإسلامية، ولم يقتصر تعاملها المزدوج هذا على الدول بل حتى مع الجماعات السياسية؛ ففي تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع منظمة "الشين فين" الأيرلندية أو مع الثوار الأفغان خلال حربهم ضد الاتحاد السوفيتي السابق فإن الولايات المتحدة لا ترى أي تعارض في ذلك مع الإرهاب، ولكن هذا المبدأ يطبق بحق بعض الجماعات الإسلامية التي عرف عنها الانفتاح والاعتدال ونبذ العنف. ويثير دور الوسائل الإعلامية في

السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تساؤلات وتحفظات كثيرة، مما دعا بعض الباحثين لدراستها لما لها من أثر بالغ على المخرجات السياسية عالمياً. ففي دراسة عن «**دور الإعلام في السياسة الخارجية للولايات المتحدة**» يثير إدوارد هيرمان (Edward Herman) مجموعة من النقاط والملاحظات الجديرة بإلقاء الضوء عليها ولو بصورة سريعة[58]. وأهم تلك الملاحظات التي يثيرها هي العلاقة الجدلية بين الرسميين ووسائل الإعلام؛ إذ يلاحظ أن معظم الأخبار التي تثيرها وسائل الإعلام يكون الرسميون مصدرها. فعلى سبيل المثال فإن ثلاثة أرباع أخبار الصفحة الأولى في صحيفتي **واشنطن بوست** و**نيويورك تايمز** تعتمد على مصادر رسمية. والملاحظة الأخرى التي يثيرها هي أن الإعلاميين الذين لا ينقادون لتأييد السياسة التي تنتهجها الإدارة الأمريكية يعاقبون عن طريق عدم إعطائهم أي سبق إعلامي. كما يلاحظ أيضاً أن معظم أقطاب الإعلام والمهيمنين عليه لهم مواقع مهمة في النخبة السياسية التي تدير دفة الحكم. أما ملاحظته الأخيرة فهي تنطوي على دور وسائل الإعلام في تفريغ المحتوى (Decontextualization) لبعض الأخبار المهمة وإظهارها على أنها هامشية، من أجل إضفاء الصبغة الموضوعية على أخبارها.

وتتماثل النتائج التي توصل إليها هيرمان مع دراسة ميخائيل سليمان المذكورة آنفاً، والتي استغرقت ثلاثين عاماً تقريباً من البحث والتحليل. فبعد إجراء العديد من القراءات الاستقرائية لسبع صحف ومجلات أمريكية، وجد أن المضمون الإعلامي لهذه الصحف والمجلات منحاز بصورة مجحفة ضد العرب والمسلمين، فمعظم الأوصاف التي تطلق

عليهم لا يخرج عن القوالب التصورية لألفاظ منحازة؛ مثل "بدو" و"مستوى تعليمي منخفض" و"عدم الصدق" و"عدم الجدارة بالثقة" و"غير ديمقراطيين" وإلى غير ذلك من صفات غير حميدة[59].

إن هذه الدراسات وغيرها تؤكد حقيقة لا يعتريها شك، تتجسد في عضوية العلاقة بين مؤسسات الاستشراق ووسائل الإعلام ومتخذي القرارات السياسية. إن الأقطاب الثلاثة يمثلون الرحى الرئيسية لصناعة القرارات في بعض الدول الغربية، وبخاصة إزاء الدول والمجتمعات العربية والإسلامية.

لكن بعد حديثنا عن الارتباط العضوي بين وسائل الإعلام في الغرب مع بعض السياسات العملية التي تمارسها بعض الدول الغربية، لعل هناك من يحتج على ما تقدم من علاقة بين الدولة الغربية والمراكز البحثية والمنتديات الفكرية والمؤسسات الإعلامية وبعض المؤلفين والكتاب بسبب عدم امتلاك الدولة لهذه المؤسسات، أو لعدم سيطرتها على الوسائل الإعلامية. وعلى الرغم من سطحية هذا الاحتجاج، فإنه يمكن تفنيده من خلال أوجه عديدة نختار منها اثنين: الأول، من خلال تقديم دليل عملي على ارتباط مراكز البحوث وأطروحاتها بالسياسة الغربية؛ إذ يوجد عدد كبير من الأدبيات والمراجع التي تتناول علاقة النخب السياسية بالباحثين ومراكز البحوث التي تقدم تصوراً يخدم الغايات والأهداف الأيديولوجية والسياسية للدول الغربية. وإحدى أهم هذه الدراسات هي التي قام بها إدوارد هيرمان وجيري أوسوليفان (Gerry O'Sullivan) والتي تحمل

عنوان «**الإرهاب أيديولوجيا ومصنعاً للثقافة**»[60]. إن الفرضية التي ينطلق منها الباحثان تقول إن تموين العمل الإرهابي والحاجة للدعاية الخاصة بالإرهاب يمكن أن تفسر من خلال ما تقتضيه المصالح الغربية، وليس عن طريق المعرفة الموضوعية للإرهاب. وكما يقول الباحثان فإن الحقيقة الغائبة عن أنظار كثيرين هي أن الغرب يستخدم الإرهاب وسيلة أيديولوجية ودعائية للتحكم في العالم عن طريق تعميم وتسويق ثقافة محدودة ومرسومة المعالم عن الإرهاب تخدم في محصلتها النهائية مصلحة الغرب العليا. ولقد استخدم الباحثان المنهج الكمي ـ التحليلي للتحقق من فرضيتهم، ثم شرحا النموذج الذي تتبناه الدول الغربية عن الإرهاب، حيث إنه يتضمن العناصر التالية:

1. العالم الغربي مستهدف من قبل الإرهابيين.
2. إن الأعمال التي تقوم بها الدول الغربية ضد الإرهابيين هي مجرد ردود أفعال قائمة على الحق في الرد، لأنهم يريدون إخضاع العالم الغربي لسيطرتهم عن طريق استخدام الابتزاز و إلقاء الرعب في قلوب الناس الأبرياء.
3. وبناء على ما سبق، يجب على الحكومات الغربية مساعدة بعض الجماعات المعارضة والدول المتحالفة معها، للقضاء على الإرهابيين، بما أن هناك علاقة تضامنية وتعاونية بين الإرهابيين أنفسهم، تهدف إلى تقويض أركان السلم والأمن الدوليين.
4. الأعمال الإرهابية في العالم يقودها الاتحاد السوفيتي المنحل والجماعات المعارضة لمصالح الغرب وتوجهاته نحو "العولمة".

وبهذا الشكل يكون موضوع الإرهاب ومادته هما كل شيء يمثل الندية للغرب، وعليه فهناك مسوغ أخلاقي ـ قانوني ـ أيديولوجي لردع هذا الند من باب الدفاع الشرعي عن النفس.

ويقسم الباحثان المتخصصين في شؤون الإرهاب والجماعات الإرهابية ثلاث مجموعات: الأولى تضم أتباع المؤسسة اليمينية (Right Wing Establishment) التي تؤيد النموذج الرسمي الغربي المبين أعلاه تأييداً كاملاً دون تحفّظ، بل تساهم في ترسيخه ودعمه وتحث الحكومات الغربية على اتخاذ الوسائل الوقائية جميعها ضد الإرهابيين. والمجموعة الثانية تضم أتباع المؤسسة المعتدلة (Moderate Establishment) الذين يؤيدون معظم العناصر الرئيسية في النموذج الرسمي الغربي أيضاً، لكنهم يتحفظون فقط على مقولة إن كل الإرهاب في العالم يقوده الاتحاد السوفيتي والجماعات المعارضة للغرب، كما أنهم يتحفظون على الوسائل التي تستخدم ضد الإرهابيين، حيث إن بعضها وسائل غير مشروعة وبخاصة الأعمال الوقائية، وتحفّظهم يأتي من باب عدم رغبتهم في رؤية المجتمعات والحكومات الغربية تسقط في نمط أعمال الإرهابيين نفسه. والمجموعة الثالثة هي الجماعة المعارضة أو المنشقة (Dissident) عن التوصيف الرسمي للإرهاب والتي تعد هذا التوصيف عملاً منحازاً إلى مصالح الغرب والنخب الحاكمة فيه، كما تعتقد أن الإرهاب في العالم هو من صنع الحكومات الغربية وبعض حلفائها في العالم.

ثم قام الباحثان بعد ذلك بتحديد أسماء المتخصصين في موضوع الإرهاب وفق معايير موضوعية مثل أخذ العينة العشوائية من عدد من

خبراء الإرهاب الذين استخدمت آراؤهم أو تمت مقابلتهم من قبل وسائل الإعلام الرئيسية في الغرب، والنظر إلى عدد المرات التي استند فيها الباحثون إلى آرائهم عند مناقشة موضوع الإرهاب، وهي المعايير التي تم تدوينها في أجزاء من دراسة ألكس سشميد (Alex Schmid) التي قامت برصد ظاهرة الإرهاب وإحصاء أسماء المتخصصين بالإرهاب الدولي عن طريق تتبع عدد مؤلفاتهم في هذا الحقل وعدد المرات التي تمت فيها الإشارة إلى كتاباتهم من قبل الآخرين. وبالإضافة إلى ما سبق قام الباحثان باستحداث معايير أخرى للهدف نفسه. وكانت حصيلة أسماء الذين يعدون من أشهر المؤلفين في موضوع الإرهاب 32 متخصصاً. والغرض الذي يصبو إليه الباحثان في تحديد هذه الأسماء هو تقويم آراء هؤلاء المتخصصين وتصنيفها بحسب المجموعات الثلاث السالفة الذكر، من أجل معرفة أمكنة عملهم، حتى تتسنى معرفة تأثيرهم وتأثرهم بمناطق النفوذ السياسي في الغرب. وقد أتت النتائج التي حصل عليها الباحثان بعد ذلك على النحو التالي:

1. من بين 32 متخصصاً في الإرهاب يوجد متخصص واحد فقط (تبين من اسمه أنه عربي) يمثل المجموعة المعارضة للتوصيف الرسمي الغربي للإرهاب، بينما يمثل رأي مجموعة المؤسسة اليمينية أغلبية الثلثين.

2. الأغلبية العظمى من المتخصصين وبخاصة أتباع المؤسسة اليمينية ينتمون إلى مراكز بحوث كبرى تزيد ميزانيتها السنوية على عشرة ملايين دولار، وتعرف هذه المراكز بالأربعة الكبار وهي:

أ. "مؤسسة هوفر" (Hover Institute).

ب. "مـؤسـسـة المشـروع الأمـريكي" (American Enterprise Institute, AEI).

جـ. "مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية" الملحق بجامعة جورج تاون (Center for Strategic and International Studies, CSIS).

د. "مؤسسة التراث" (Heritage Foundation).

3. إن أغلبـية المتـخصصـين من أتباع المؤسـسة اليـمينيـة المرتبطين بمراكز البـحوث الكبـرى لهم مناصب رسـميـة أو استـشارية في الأجهـزة الرسمية في الدول الغربية وبخاصة الأجهزة الاستخبارية. كما أن أغلبهم مرتبط مباشرة أو بشكل غير مباشر بالتوجه اليميني العالمي الذي يمثله "اتحـاد مـون الكنسي العـالمي" (Reverend Moon's Unification Church) و"الرابطة العالمية لمكافحة الشيوعية" (World Anti- Communist League) واللوبي الصهيوني ـ الإسرائيلي.

4. إن مراكز البـحوث الكبرى مدعومة مالياً من المؤسسات الرسمية وبخاصة الاستـخبارية، ومن الشركات الخاصة ذات الارتباط بالسياسة الخارجية مثل شركات التصنيع الحربي.

5. إن أغلبية أتباع المؤسسة اليمينية لهم علاقة - أو يعملون محررين - بدور النشر والصحف والمجلات والدوريات العالمية مثل مجلة **واشنطن كوارترلي** (*Washington Quarterly*)، وصحيفة **واشنطن**

تايمز (*Washington Times*)، ودورية **تيروررزم آند كونفلكت كوارترلي** (*Terrorism and Conflict Quarterly*)، **وريدرز دايجست** (*Reader's Digest*)، وصحيفة **وول ستريت جورنال** (*Wall Street Journal*)، وصحيفة **نيويورك تايمز** (*New York Times*) وغيرها.

6. بعد تحليل مضمون الكتب الرئيسية عن الإرهاب يتضح وجود انحياز كبير للغرب وإسرائيل، بحيث تمت الإشارة مرتين فقط إلى أسماء أشخاص مرتبطين بالغرب وإسرائيل قاموا بعمليات إرهابية، في حين أنه تمت الإشارة 733 مرة تقريباً إلى أسماء أشخاص عرب أو معارضين للغرب.

7. إن أتباع المؤسسة اليمينية قد ساهموا في صنع وتأسيس ثقافة عامة عن الإرهاب في المجتمعات الغربية. كما يضطلع هؤلاء ببناء شبكة أيديولوجية ـ مؤسسية خاصة بهم عن طريق التعاون المتبادل في استناد بعضهم إلى آراء بعض ومشاركة أحدهم للآخر في الاشتغال بالبحوث الخاصة بالإرهاب، وإتاحة بعضهم الفرصة لبعض لكتابة مقدمات الكتب التي ينجزونها، ناهيك عن إطراء المديح والتأييد لما يكتبه أحدهم للآخر، سواء كان في الصحف أو الإذاعة أو التلفاز. وتهدف المؤسسة اليمينية إلى خلق سيطرة ثقافية على المفاهيم الأساسية ذات الصلة بالسياسة الخارجية، التي تمكن الحكومات الغربية من اتخاذ قرارات فعالة ضد المعارضين لها.

ويختم الباحثان دراستهما بالجملة التالية: «نعتقد أن عملية تحويل الغرب إلى مجني عليه من الإرهاب وتحويل المجني عليهم إلى إرهابيين، في ضوء هذه الحقائق، هو من صنع الأكاديميين والصحفيين الغربيين»[61]. ويؤكد هذه النتيجة ريتشارد فالك (Richard Falk) أستاذ العلاقات الدولية في جامعة برنستون حيث يقول: «إن الدعاية الناجحة في السنوات الحالية تربط الإرهاب بالحركات الثورية المعارضة، مثلما يحدث ذلك بوضوح تجاه الفلسطينيين والإسلاميين . . . وبذلك فإن مذهب التصورات يشكل الانطباع الجماعي (في الغرب) عن الحقيقة، هذه النظرة سيطرت على عقولنا وسياستنا الخارجية بخصوص الإرهاب. فكل فعل يقوم به الفلسطينيون أو الإيرانيون هو إرهاب، يجب أن يقابل بعمل تحت شعار محاربة الإرهاب»[62].

كما يؤكد هذه الرؤية ألكسندر جورج (Alexander George) في دراسته «**منهج دراسة الإرهاب**» حيث يقول: «إن دراسات الإرهاب أو علم الإرهاب عقيمة علمياً؛ إذ إنها ليست قائمة على فلسفة المعرفة، ولأن علماء الإرهاب لم يبنوا نظرياتهم ويطوروها بناء على استجابة موضوعية منصفة لحل هذه الإشكالية في العالم الحقيقي، وإنما كانت دراساتهم تتم بناءً على استجابة لضغوط أيديولوجية»[63]، ولعل الضغوط الأيديولوجية التي يقصدها هي تلك التي يصنعها أقطاب اليمين أو المؤسسة اليمينية على حد تعبير هيرمان وأوسوليفان في دراستهما المشار إليها آنفاً.

ومن واقع هذه الدراسة وغيرها يمكن لأي شخص يريد أن يكون أكاديمياً وموضوعياً وضع النقاط على الحروف، لحل لغز الازدواجية التي

تتمثل في السياسات الخارجية للدول الغربية في تعاملها مع العرب والمسلمين. هذه الازدواجية التي كانت لها مدلولات واقعية لا يعتريها أي شك في البوسنة والجزائر ولبنان وفلسطين، وإزاء كثير من قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالصراع العربي ـ الصهيوني.

وما نريد أن نؤكده ونحن في هذا الصدد أن صراع الأفكار بين "الليبرالية الغربية" وغيرها بما فيها الإسلام تطور إلى واقع عملي بفعل هذه الازدواجية، فلم يعد هذا الصراع محدوداً بالأطر النظرية، بل أخذ طريقه إلى مصادمات مشهودة في مختلف مناطق العالم. ويحاول الغرب ومؤيدوه أن يجعلوا من هذا النزاع صراعاً بنيوياً على المستوى الإقليمي والكوني، كما كانت الحال عليه في الصراع الرأسمالي ـ الشيوعي، بحيث يكون الطرف الأول حاملاً للواء الليبرالية العالمية، والثاني يحمل لواء الأصولية المغلقة. كما يريد الغرب أن يستبدل كل الشعارات التصورية في هذا الصراع، بحيث يحل الهلال محل المنجل والمطرقة، ويحل العلم الأخضر محل العلم الأحمر، ولا نعلم من هو البديل لكارل ماركس! ومن المؤسف أن يتبنى هذا "المونولوج" الساخر كثيرون من الذين لم يجدوا سبيلاً للخروج من فشلهم السياسي إلا بالتهجم على الإسلام والعروبة والتنكر للذات أيضاً، وإن لم يقف كثير منهم يوماً ما في موقف معاد للغرب قبل سقوط التنين الأحمر. فلقد غدوا يتشدقون بالتغريب وكأنهم أعمدته الركيزة، وتناسوا أن هناك بوناً كبيراً بين التغريب والحداثة.

وعلى النهج نفسه دأبت وسائل الإعلام البريطانية؛ ففي دراسة أعدها حلمي ساري نتبين أوجه التشابه بين الإعلام البريطاني والإعلام

الأمريكي، فقد قام المؤلف بتحليل مضمون لأربع صحف بريطانية كبرى، وهي: **الديلي إكسبرس** (*Daily Express*) و**الجارديان** (*The Guardean*) و**التايمز** (*The Times*) و**المورننج ستار** (*The Morning Star*) اعتماداً على عينات عشوائية لأخبارها الخاصة عن الشرق الأوسط منذ عام 1968 إلى عام 1980، ولقد كانت دالة النتائج تشير إلى التحيز للجانب الإسرائيلي، ناهيك عن تلاصق الأخبار بالمقولات والأساطير الاستشراقية الأساسية كما بينا ذلك فيما سبق[64].

ولم تخرج الصحافة الألمانية عن السياق العام للمضمون الإعلامي الموجه ضد العرب والمسلمين، ولو كان بصورة أقل وطأة. هذا ما توصل إليه سامي مسلم في كتابه «**صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية**»؛ إذ قام بتحليل مضمون ثلاث صحف يومية وهي: **فرنكفورتر ألجماينه تسايتونج** (*Frankfurter Allgemeine Zeitung*)، **وزود دوتشه تسايتونج** (*Suddeutsche Zeitung*)، و**دي فلت** (*Die Welt*)، بالإضافة إلى تحليل مضمون مجلتين أسبوعيتين، وهما: **دي تسايت** (*Die Zeit*)، و**دير شبيجل** (*Der Spiegal*). ومن خلال ما سبق عمل على تحليل الأخبار والمقالات عن الشرق الأوسط التي يدونها ستة وستون محرراً وصحفياً. وقد تبين أن معظم الأخبار الواردة تأتي من مصادر أخرى نظراً إلى عدم اختصاص معظم الصحفيين أو لعدم درايتهم باللغة العربية. ويتوصل المؤلف إلى نتيجة مفادها أنه على الرغم من التغير البسيط الذي طرأ في الصحافة الألمانية إزاء العرب بعد حرب عام 1973، لكن الصورة المشوهة والمصاحبة للموروث الاستشراقي مازالت هي الطاغية في مجال الخطاب الإعلامي الشعبي في هذه الدولة[65].

وإذا لم يقتنع بعض المتغربين الشرقيين بهذه الازدواجية التي تعانيها الحكومات الغربية في تطبيق المبادئ التي تنادي بها بحجة عدم وضوح الدليل الأول السابق وهو ارتباط المؤسسات البحثية والإعلامية وأطروحاتها بالسياسة الغربية، فإننا يمكن أن نورد الوجه الثاني للرد الذي يتمثل في مراجعة الكتب المدرسية المعنية بالعلوم الاجتماعية، والتي تدرَّس في المدارس الغربية في مختلف مراحلها، وبخاصة المراحل دون الثانوية، وتجب ملاحظة أن المؤسسات التعليمية في الدول الغربية خاضعة مباشرة لسيطرة الدولة إذا كانت حكومية، أما إذا كانت غير حكومية فإن هناك دوائر حكومية متخصصة بمراقبة مناهجها حتى تضمن أنها لا تخرج عن الذوق العام ولا تتعارض مع فلسفة الدولة "الليبرالية". وعند مراجعة مواد الكتب المدرسية فإننا نجد تشابهاً وتمازجاً - إن لم يكن تماثلاً وتطابقاً - مع الصورة التي نقشها المستشرقون التقليديون والمستحدثون منهم للعرب والمسلمين، كما أن هذه المواد لا تخرج عن الوتيرة التي تعزف عليها المؤسسات البحثية والإعلامية المعروفة بارتباطها مع مراكز القوة في الدول الغربية.

ويمكننا في هذا الصدد أن نراجع بشكل سريع بعض الدراسات التي عالجت علاقة المحتوى "العلمي" في المدارس الغربية بالصورة السلبية للعرب والمسلمين، وارتباط ذلك بالرؤية والتوجه السياسيين للدولة في الغرب. وأول دراسة يمكن أن نتعرض لها هي دراسة مارلين نصر «**صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**»[66]؛ إذ استخدمت الباحثة منهجي التحليل الكمي وتحليل المضمون، حتى تبتعد قدر الإمكان عن التصورات القيمية الخاصة بها. فبعد تحليلها لخمسة وثمانين كتاباً

تتضمن مقررات التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية للمرحلتين الابتدائية والثانوية توصلت إلى نتيجة مؤداها أن هذه الكتب تقدم العرب والمسلمين بصورة ماض متخلف دون حضارة، حيث إن مكانهم هو الصحراء ذات الطبيعة البدوية البعيدة عن التقدم والقريبة من التخلف، كما أن هذه الكتب لا تعد أن للإسلام حضارة لها إبداعها الخاص، بل تتسم بتبعيتها للحضارات الأخرى، وتصف هذه الكتب الإسلام بأنه دين الخضوع والتعصب. وعن علاقات الدول الغربية - وبخاصة فرنسا - بالعرب والمسلمين، فإن الغالبية الكبرى من الكتب المدرسية تركز على حتمية الصراع وتبعية العرب للفرنسيين، وأن العنصر الإسلامي-العربي هو الذي يتسبب دائماً بالعدوان في جميع المجابهات القديمة منذ الحروب الصليبية مروراً بالمراحل الاستعمارية، وحتى الحروب الإسرائيلية-العربية في أعوام 1948 و1956 و1967، في حين أن العنصر الغربي سواء كان فرنسياً أو إسرائيلياً هو العنصر المدافع عن حقه، لذلك فإن النصرة والغلبة دائماً كانت وستكون من نصيبه، لأنه الطرف "المظلوم". وفي الوقت نفسه الذي تمجد فيه هذه الكتب انتصارات الغرب فإنها لا تذكر أي إشارة إلى انتصارات العرب والمسلمين وصمودهم في معاركهم ضد الصليبيين، أو المستعمرين مثل حرب الاستقلال في الجزائر، أو فشل العدوان الثلاثي في حرب السويس، أو تدمير خط بارليف عام 1973، وعلى الرغم من تغطيتها هذه الموضوعات، فإنها على العكس تظهر الغرب على أنه العنصر الإيجابي، بينما العرب والمسلمون هم العنصر السلبي.

وعند تناول الشخصية العربية-الإسلامية فإن هذه الكتب عامةً تصفها بحب الموت والهروب والاستسلام والخضوع والتمرد السلبي والنهب

والبربرية، بينما تصف الشخصية الغربية بالشجاعة والتقدم والانتصار والصبر والسماحة والإيجابية في الفعل والالتزام بالمبادئ. أما عن الصراع العربي - الإسرائيلي وكيفية وصف هذه الكتب المدرسية له، فإننا نجد أن العرب هم الذين يرفضون ويدمرون ويمنعون ويحظرون ويهاجمون ويعادون وينهزمون، وإذا حققوا انتصاراً طفيفاً فإن ذلك يوصف بأنه غسل للمهانة، كما كان في حالة استثنائية للقوات المصرية في حرب عام 1973، وفي المقابل فإن الإسرائيليين يوصفون بالذين يقبلون التفاوض ويريدونه ويبنون ويعملون ويصدون العدوان وفي النهاية ينتصرون.

وعلى الرغم من شجب الكتب المدرسية للعملية الاستعمارية بصورة عامة، وذلك لممارستها الاضطهاد واللامساواة ضد الآخرين، فإنه عند تناول الاستعمار الفرنسي للجزائر تأتي معالجة هذه الكتب بصورة مفتتة ومبتذلة ومفتقرة إلى كثير من الحقائق، بغرض إخراج الموضوع عن صورته السوداوية التي لا تنسجم مع الصورة التي تقدمها هذه الكتب في مواقع أخرى لإيجابية الغرب وفرنسا بالذات. فعلى سبيل المثال نجد أن هذه الكتب تصف استقلال الجزائر بأنه "منحة ديجولية"، وليس حقاً قد اكتسبه الجزائريون بفعل كفاحهم وتضحيتهم بمليون شهيد. كما تصور أن حصول الجزائر على استقلالها لا يعني انتصاراً عسكرياً لجبهة التحرير الوطني الجزائرية أكثر منه انهزاماً سياسياً لفرنسا على الرغم من انتصارها عسكرياً، وفي الوقت نفسه لا تشير هذه المصادر والكتب البتة إلى أي انتصار سياسي للجزائريين. وعند تناول الخطاب المدرسي لهوية الفاعلين في الحرب الجزائرية - الفرنسية فإن الفاعل الفرنسي يشار إليه بالجماعة الأوربية، بينما

يشار إلى الجزائريين بالمسلمين. وما أشبه هذه المقابلة بالوصف الإعلامي الدولي لحرب البوسنة والهرسك، حين يشار إلى البوسنيين بالمسلمين بينما يشار إلى الصرب المعتدين باسمهم دون الإشارة إلى دين معين! والسبب وراء ذلك هو عدم إلصاق فعل الخاصة بالجماعة العامة، ولكن إذا تعلق الأمر بالمسلمين فإن هذه القاعدة ليس لها محل مطلقاً في الفقه السياسي عند الغرب.

وعلى صعيد آخر، فإنه عند مراجعة الكتب المدرسية الأمريكية فإننا نجدها – وإن كانت أخف وطأة من مثيلاتها الفرنسية – لا تخرج عن النطاق التصوري المقولب الذي يصوره أئمة الاستشراق ومؤسساته الإعلامية الكبرى. فمراجعة "جمعية دراسات الشرق الأوسط" في الولايات المتحدة الأمريكية وتقويمها للكتب المدرسية الأمريكية دللت بصورة واضحة على عدم قدرة مؤلفي الكتب المدرسية في الولايات المتحدة الأمريكية – فضلاً عن تحيزهم – على معالجة موضوع الصراع العربي-الإسرائيلي. وتقول الجمعية: إن هذه الكتب عرضت كثيراً من التشويهات الذهنية والتاريخية عن الفلسطينيين، بوصفهم الجانب المتسبب والجانين على أنفسهم من خلال استجابتهم لدعوة الزعماء العرب والأتراك لترك أراضيهم! بينما في المقابل نجد الإسرائيليين يوصفون بأنهم الجانب المجني عليه، والذي أراد من الفلسطينيين البقاء في أراضيهم. وإضافة إلى ذلك فإن هذه الكتب تعد الصهيونية فلسفه ليبرالية متقدمة لا تشوبها شائبة عنصرية، وأنها المادة الأيديولوجية الإيجابية للإسرائيليين اليهود الذين حولوا الصحراء إلى مدن حضارية خلال سعيهم الدائب والمتقدم، بينما ظل العرب متخلفين[67].

وبعد دراسة تحليلية للكتب المدرسية الأمريكية والمادة التي تحتويها عن العرب والمسلمين في مقابل اليهود والإسرائيليين يستنتج ميخائيل سليمان أن العرب غالباً ما يوصفون بالمتحيزين والبدو والمتطرفين وغير ذلك من أوصاف سلبية، بينما يتمتع اليهود والإسرائيليون بأوصاف إيجابية نحو: المتقدمين والمناضلين وأصحاب الحق والديمقراطيين[68]. ويقول سليمان عن هذه المفارقة: «إنها إرث حمله الأمريكيون من أوربا، بالإضافة إلى المعلومات التي أتت بها روايات الكتب الدينية، باعتبارها الروايات الحرفية لما جرى في الشرق الأوسط منذ القدم، وإلى جانب ذلك فإن المستوطنين المسيحيين الأوائل الذين نزحوا من أوربا إلى أمريكا، وهم "المطهرون" في نيوإنجلاند، كانوا قد أتوا بالفكرة الصهيونية الخاصة بالاستيطان اليهودي في فلسطين قبل أن يتخذها الصهاينة حلاً محتملاً للاضطهاد اليهودي . . . ولقد رأوا شبهاً أكيداً بين وضعهم ووضع قدامى بني إسرائيل، ونظروا إلى بلادهم على أنها إسرائيل الأمريكية»[69].

إذاً من خلال التبرير للفعل الصهيوني يمكن تبرير الوضع النفسي الذي كان يعانيه الأمريكيون الأوائل. وعلى الرغم من عدم التماثل في الحدثين (الهجرة الأوربية إلى القارة الأمريكية والهجرة اليهودية إلى فلسطين) فإن هذه الرؤية المغلقة والمشوهة قد انبعثت من مصدرين رئيسين؛ وهما الدين والسياسة. فالدين المسيحي بصورته اللاهوتية التي تهيمن عليها "الكنائس المسيحية" حتى يومنا هذا مازال عنصراً فعالاً في التحليل التاريخي للأحداث الماضية والآنية والمستقبلية، وبخاصة عند النظر إلى العرب والمسلمين. أما المصدر السياسي فتسوِّق له الدوائر الإعلامية والنخبوية

البحثية لتبرير التأييد الأعمى والمتناقض للسياسة الغربية والإسرائيلية ضد العرب والمسلمين. وإن اختمار المصدرين المشار إليهما قد كوّن خليطاً فكرياً واستراتيجياً، بحيث يصعب على أحد التفريق بينهما، لأنهما ساهما في بناء نظرية أحادية إزاء العرب والمسلمين في الغرب. هذه النظرية التي لم يعد عدد من يتبناها محصوراً في بعض المدارس الاستشراقية أو أتباعها من بعض المثقفين في الشرق والغرب، بل أصبحت متبناة سياسياً على مستوى كثير من طبقات الدولة في الغرب وكذلك الحال على مستوى الشعب وتوجهاته التي تظهرها استطلاعات الرأي العام، وإن كانت طرق الاستبانات التي توزع، والأسئلة التي تقدم يعتريها كثير من الخلل والتحيز لضمان إيجابية الجواب لصالح إسرائيل والصهيونية والغرب ضد العرب والمسلمين.

خاتمة

بعد هذه المراجعة لموضوع مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، فإن السؤال الذي يُطرح هو: هل يوجد مجال بعد ذلك للتشدق بوجود التسامح في المجتمعات الغربية بالصورة التي يروج لها كثير من المستشرقين والمتغربنين في الشرق؟ وهل بالفعل تسعى المؤسسات التعليمية في الغرب إلى أن تصنع إنساناً متسامحاً مع العرب والمسلمين، أو على الأقل إنساناً قادراً على أن ينظر بموضوعية إلى الأزمة الحضارية المصطنعة بين المجتمعين الغربي والعربي أو بين الديانتين المسيحية والإسلام، وبخاصة في ظل النظام الدولي الجديد الذي ينتاب الكثيرين شكوك حول إشعاله صراعاً حضارياً قائماً على الإثنية بدرجة لا يستهان بها؟ وهل صحيح ما يقوله عبدالعزيز سرحان أستاذ القانون الدولي في كتابه «**العودة**

لممارسة القانون الدولي الأوربي - المسيحي» بأن ما يسمى بالنظام الدولي الجديد ما هو إلا نظام مغلق، يحمل في جوانبه وبواطنه تحيزاً صارخاً إلى جانب الغرب وإسرائيل ضد العرب والمسلمين، وأن النظام الدولي الجديد الذي تدعو إليه الدول الغربية ما هو إلا نظام قديم، يظهر بزي جديد محدث؟ فهو نظام يدعو إلى العودة إلى حقبة احتكار السلاح، ويعطي للاستعمار الجديد مبرراً شرعياً تحت غطاء الأمم المتحدة، وهو نظام يستقيم مع منطق القرون الماضية، عندما كان تطبيق القانون الدولي محصوراً على أوربا والمسيحيين، أما الآخرون فلا قانون يحكمهم ولا هم يستطيعون الاحتكام إلى القانون[70].

إن الذي عاش – أو يعيش حالياً – في المجتمعات الغربية، وبخاصة في أوساط المجتمع الأمريكي قد لا يلمس هذا الصراع الحضاري ظاهراً، أو بهذه الصورة السوداوية في الوقت الراهن، ولكن بكل تأكيد إذا استمر الوضع على حاله فإن المستقبل قد يضمر وجهاً آخر؛ إذ إن الحقيقة التي تتجلى في المستقبل توحي بأنه إذا استمر التفكير والسياسة الغربية على هذا النحو فإننا سندخل في أتون أزمة حضارية حقيقية، لا تقتصر أطرافها على مستوى الحكومات والنخب السياسية وإنما سنكون جميعاً بوصفنا مجتمعاً إنسانياً بعضنا ضحايا بعض.

إن استمرار السياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين بالشكل الذي تم إيضاحه يشير إلى خطورة متوقعة في المستقبل المنظور، فالواقع العربي والإسلامي ينضح بمستجدات سياسية جديدة، أهمها تنامي رصيد الحركات الإسلامية، وهذا التنامي في أشكال هذه الحركات وأصنافها لا

يمكن التعامل معه وفق وصفة سياسية واحدة على الشكل الذي تنتهجه بعض الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية؛ فالجماعات والأحزاب السياسية متنوعة المشارب الفكرية والأساليب والغايات السياسية، وإن التعامل وفق نمط واحد تنتابه اللاموضوعية من جهة، والنظرة الأحادية الشمولية من جهة أخرى وهو ما سوف يزيد من حدة التوتر الحضاري بين المنتمين إلى دين الإسلام والغرب، وإضافة إلى ذلك فإن مثل هذا التعامل سيضع العلاقة بين الطرفين في أزمة سياسية مأساوية، تعمّق التفكير والسلوك غير العقلانيين للأطراف جميعهم. فبدلاً من اتخاذ سبيل الحوار الإيجابي والتجاوب مع إيجاد حلول للتغيرات والخلافات الفكرية والسياسية، سوف ينزع الطرفان إلى العدائية.

وبناءً عليه، فإنه يمكننا القول إن السياسة الغربية الراهنة إزاء العرب والمسلمين سوف تقود إلى منطق الراديكالية بدلاً من منطق العقلانية، بالإضافة إلى أن ازدياد جنوح الدول الغربية إلى الحدية، وقولبة الحركات الإسلامية جميعها بنمط واحد سوف يعمق من حضور هذه الجماعات وتكاثرها، ولاسيما الراديكالية منها على حساب تهميش دور المعتدلين. وهذه الملاحظة لا تمكن معالجتها إلا من خلال إيجاد قنوات الحوار البناء عند الطرفين.

ولعل الحوار المسيحي ـ الإسلامي الذي تتبناه الكنائس الشرقية والمجمع الفاتيكاني الثاني قد ولّد قاعدة وتوليفة حضارية تجب الاستفادة منها والاسترشاد بها، وبخاصة أن الحوار الذي ينشده اللاهوتيون المسيحيون وعلماء المسلمين من خلال اجتماعاتهم المتعددة، لا ينظر في موضوع

الحوار، بل في قضية أسمى وأكبر تتجلى في القدرة على استيعاب أطروحة الآخر[71]. وحتى إن كان مردود هذا الحوار الذي بدأ منذ أكثر من ثلاثين عاماً قليلاً، فإن دعمه حكومياً وشعبياً ينطلق من الحاجة الضرورية والحتمية الموضوعية التي يفرضها الواقع المعيش ونحن على أتون ما يسمى بالصراع الحضاري.

كما أود أن أسجل ملاحظة مهمة تختص بنا عرباً ومسلمين وهي أنه علينا ألا نُضمر نظرة شمولية تكتنفها اللاموضوعية إلى الغرب، وننجر بعد ذلك إلى الشرك الحضاري المزمن نفسه. فالحضارة الغربية لا تحتوي فقط على موسيقا (الروك آند رول) و(الماكدونالد) ودور الشواذ، بل إنها تحتوي على كثير من الأفكار الإيجابية المبدعة، والتطور التقني الذي قدم للبشرية خدمات كبرى. وعليه فإننا كبشر محتاجون اليوم أكثر من أمسنا إلى أن يتفهم بعضنا بعضاً، كي نستطيع أن نرتقي إلى عالم أفضل، عالم تعتمد كلياته على أجزائه، عالم لا يجد الإنسان فيه مفراً دون اللجوء إلى الفهم والتعامل مع أخيه الإنسان، عالم يحب أن يتجاوز فيه بعض الإسلاميين - على وجه الخصوص - النظرة الضيقة إلى بعضهم وإلى غيرهم، فالإسلام أصبح اليوم عنصراً عالمياً بصورة لم يشهدها التاريخ من قبل، لذلك يجب أن يحاول أتباعه أن يطرحوا مشروعاً ونموذجاً حضارياً للإنسان.

وأخيراً، هل سيشهد العالم الحديث عودة إلى تاريخ العصور الوسطى الذي رسمت أحداثه التعصبات العرقية والدينية؟ لعل الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى بحث آخر، ولكن ما يدعو إلى القلق الإنساني تلك المؤشرات الخطرة المستشرية من جراء استفحال التعصب وعودة القهر

الجماعي والعنصرية الدولية، بعدما قطعت الإنسانية شوطاً طويلاً من التمدن والتحضر. فلا نبالغ مطلقاً عندما نقول إن هذه المؤشرات تدعو إلى عودة الداروينية بشكل جديد بحيث تفرض منطقاً عقيماً تكون بموجبه الأفضلية وحق الهيمنة للأقوى، لتعود بذلك عهود الاستعباد السوداء وممارسة الظلم الإنساني، فإن استرجعنا المعنى القانوني لكلمة ظلم فإنها لا تخرج عن «اعتداء على العدالة وسوء العدل أو الامتناع عن الحكم أو رفض إحقاق العدالة»[72]، فما الذي يمكن عمله؟

لعل إدوارد سعيد ممن يعانون أساساً من جراء تفاقم هذه المشكلة الإنسانية، فهو يقول في كتابه «**الثقافة والإمبريالية**» *(Culture and Imperialism)*: «أنا أشعر بأنني ذو حجم صغير، وغير منظم مقارنة مع إجماع الغرب المنتصر الذي يعد العالم الثالث بمثابة مضايقة أثيمة، لأنه ثقافياً وسياسياً أقل مستوى. بينما نحن نكتب ونتحدث كأصوات هامشية لأقلية صغيرة الحجم، نجد انتقاداتنا الأكاديمية والصحفية ملكاً لنظام ثري، تشتبك فيه المصادر المعلوماتية والأكاديمية مع الصحف وشبكات التلفزيون والآراء الصحافية والمؤسسات، ويضعها تحت تصرفه. نجد أغلبهم الآن يصرخون بصوت جماعي حاد أنشودة الإدانة الجماعية التي بموجبها من ليس أبيض، وليس غربياً، وليس ضمن اليهودية ـ المسيحية غير مقبول. ومن يشارك في الهجوم على هؤلاء الدخلاء فهو بالنسبة إليهم يدافع عن روح العقيدة الغربية»[73].

وفي الوقت الذي أشارك إدوارد سعيد رأيه، فإنني ألقي باللائمة الأولى علينا عرباً ومسلمين؛ إذ لم نستثمر طاقاتنا ومواردنا من خلال

التأثير في أجهزة الإعلام في المجتمعات الغربية، ناهيك عن تخلف حكوماتنا العربية والإسلامية في امتلاك جزء بسيط من المؤسسات الأكاديمية والإعلامية الغربية بدلاً من انشغالها وهدر موارد شعوبها في استيراد السلاح وتكديسه. أما نحن بوصفنا أكاديميين فأقلية وغرباء حقاً حتى في مجتمعاتنا، فكيف يكون لنا صوت في المجتمعات الأخرى ولا حول لنا ولا قوة؟ ولكن كما قال الروائي صامويل بيكت (Samuel Becket) في روايته «**الكوميديا التراجيدية في وظيفتين**» *(A Tragic Comedy in Two Acts)* عبارته الشهيرة: «أنا لا أستطيع الاستمرار، ولكن سوف أستمر»[74].

الهوامش

* **يتقدم الباحث بالشكر إلى قسم العلاقات الدولية بجامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية على استضافتها له، وتوفير التسهيلات التي كان لها بالغ الأثر في كتابة هذه الدراسة.**

1. ألكسي جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، ترجمة خلف الجراد، العدد 215، سلسلة **عالم المعرفة** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996)، ص 74.

2. المرجع السابق، ص 77.

3. دانتي أليجيري، **الكوميديا الإلهية - الجحيم**، ترجمة حسن عثمان (القاهرة: دار المعارف، 1995)؛ وانظر كذلك جورافسكي، مرجع سابق، ص 67.

4. جورافسكي، مرجع سابق، ص 76.

5. تمكن مراجعة هذه الآراء في الدراسة الرائدة:
Albert Hourani, "Islam and the Philosophers of History," *Middle Eastern Studies*, no. 3 (April, 1967): 206-268.

6. انظر:
M. P. Holt, "The Treatment of Arab History by Prideaux, Ockley and Sale," In Bernard Lewis and M. P. Holt (eds.), *Historian of the Middle East* (London: Oxford University Press, 1962), 291.

7. ألكسي جورافسكي، مرجع سابق، ص 100، والجدير بالذكر أن العنوان الأصلي لكتاب فولتير باللغة الفرنسية هو *(Le Fanatisme ou Mahomet)*.

8. بشارة خضر، **أوربا والوطن العربي: القرابة والجوار**، ترجمة جوزيف عبدالله، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1993)، ص 32؛ كما يمكن الرجوع لاستقراء مثل هذه الآراء إلى كتاب:
Josep Schact and C.E. Bosworth (eds.), *The Legacy of Islam* (London: Oxford University Press, 1974).

والكتاب القيم:

Edward Dudley and Maximillian E. Novak (eds.), *An Image in Western from the Renaissance to Romanticism* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1972).

وكذلك الكتاب الرائد:

Edward Said, *Orientalism* (NewYork: Pantheon Books, 1978).

وانظر كذلك دراسة:

Muhammad A. Al-Da'mi, "Orientalism and Arab Islamic History: An Inquiry into the Orientalists' Motives and Compulsions," *Arab Studies Quarterly*, vol. 20, no. 4 (Fall, 1998): 1-11.

9. لتغطية جيدة حول أعمال المستشرقين وتراجمهم، راجع كتاب عبدالحميد صالح حمدان، **طبقات المستشرقين** (القاهرة: مكتبة مدبولي، دون تاريخ نشر).

10. ألكسي جورافسكي، مرجع سابق، ص 37.

11. من هؤلاء المستشرقين الذين امتازوا بالإنصاف بشكل عام: إنكيتيل دوبيرون وفلاديير سولوفيوف، ولويس ماسينيون، وألكسي جورافسكي، وروبرت أولسن، وجي دي بروان.

12. انظر:

Edward Said, *Culture and Imperialism* (London: Chatta and Windus Ltd., 1993), 17.

13. انظر:

Albert Hourani, *Islam in European Thought* (UK: Cambridge University Press, 1991), 17.

14. Ibid., 29 - 30.

15. هشام جعيط، **أوربا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة** (بيروت: دار الطليعة، 1995)، ص 10 ـ 33؛ وللاستزادة تمكن مراجعة كتاب يوهان فوك، **تاريخ حركة الاستشراق: الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين**، ترجمة عمر لطفي العالم (دمشق: دار قتيبة، 1996).

16 . عرفة عبدة علي، «الشرق بالفرشاة الأوربية»، **العربي**، العدد 458 (الكويت: يناير 1997): ص 170؛ وللاستزادة حول علاقة الفن الغربي بالاستشراق تمكن مراجعة دراسة:

Hohn Nash, "The Connection of Oriental Studies with Commerce, Art and Literature During 18th-19th Centuries," *Manchester Egyptian and Oriental Society Journal*, no. 15 (1930): 33-39

17 . زينات بيطار، **الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي**، العدد 157، سلسلة **عالم المعرفة** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992)، ص 84 ـ 95.

تجدر الإشارة إلى أن المؤلفة لم تكتب أسماء الفنانين الذين تناولتهم بالأحرف اللاتينية، لذلك لم يتسن لنا كتابة أسماء الذين تمت الإشارة إليهم بالأحرف اللاتينية.

18 . فواز جرجس، «الأمريكيون والإسلام السياسي: تأثير العوامل الداخلية في صناعة السياسة الخارجية الأمريكية»، **المستقبل العربي**، العدد 207 (بيروت: 1997)، ص 4 ـ 28.

19 . هناك كثير من المراجع التي كتبت في هذا الصدد ولعل أفضلها ما كتبه:

Alvin Y. So, *Social Change and Development* (Newbury Park, CA: AGE Publication, 1995).

يتابع ألفن سو في كتابه التطورات التي لحقت على مدرسة التحديث وتحولاتها النظرية، كما تمكن مراجعة كثير من الأعمال الأخرى في هذا الصدد والتي منها:

Gabriel Almond, Scatl Flangan and Robert Mundt (eds.) *Choice, and Change: Historical Studies of Political Development* (Boston: Little Brown, 1973); Gabriel Almond, Weiner Myron and Samuel Huntington (eds.), *Understanding Political Development: An Analytical Study* (Boston: Little Brown, 1987).

وهذان الكتابان يعدان نموذجاً من الأعمال التقليدية لمدرسة التحديث، كما تمكن مراجعة مقالة صامويل هنتنجتون في هذا المجال والتي تعد دراسة رائدة وجامعة للأسئلة والمفاهيم والمداخل النظرية لمدرسة التحديث:

Samuel Huntington, "Change to Change," *Comparative Politics*, vol. 3 (April, 1971): 283-322.

وللاطلاع على علاقة التحديث بالإسلام من وجهة نظر إسلامية تمكن مراجعة الدراسات الواردة في العدد الخاص بهذا الموضوع في مجلة:

The American Journal of Islamic Social Sciences, vol. 14, no. 1 (Spring, 1997).

وعلى وجه الخصوص دراسة محمد ممتاز علي (Mohammad Mumtaz Ali) في العدد نفسه المشار إليه التي حملت عنوان:

"The Concept of Modernization: An Analysis of Contemporary Islamic Thought": 13-26.

20. انظر:

Harir Dekemjian, *Islam in Revolution: Fundamentalism in The Arab World* (New York: Syracuse University Press, 1985).

21. راجع:

Akbar Ahmed and Hastings Donnan, "Islam in the Age of Postmodernity," 1-20 and Fred Halliday, "The Politics of Islamic Fundamentalism: Iran, Tunisia and the Challenge to the Secular State," 91-113. In Akbar Ahmed and Hastings Donnan, *Islam, Globalization and Postmodernity* (London: Routledge, 1984).

وللاستزادة حول علاقة الإسلام بالعولمة تمكن مراجعة العدد الخاص بالعولمة الذي نشر في:

The American Journal of Islamic Social Sciences, no. 3, vol. 15, (Fall 1998).

وبخاصة دراسة البروفسور علي المزروعي (Ali Mazrui) في العدد نفسه المشار إليه حملت عنوان:

"Globalization, Islam, and the West: Between Homogenization and Hegemonization": 113.

22. للتفصيل حول هذه المداخل انظر دراسة:

Fred Halliday, Review Article "The Politics of Islam: A second look," *British Journal of Political Science*, no. 25, part 3 (July, 1995): 399-417.

23. انظر:

Benjamin Barber, *Jihad Vs. McWorld* (New York: Random House Inc., 1995): 315-316.

24. Ibid., 205.

25. انظر: Edward Said, *Orientatalism*, op. cit., 315-316.

26. انظر:

Bernard Lewis, "Islam and Liberal Democracy," *The Atlantic Monthly*, (February, 1993): 89-94.

27. إدوارد سعيد، **تعقيبات على الاستشراق**، ترجمة وتحرير صبحي حديدي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996)، ص 14 ـ 19.

28. انظر:

Daniel *Pipes, In The Path of God: Islam and Political Power* (New York: Basic Books Inc. Publishers, 1983).

اعترف بايبس في مقدمة الكتاب، في ص 24 بأنه اتبع منهج المدرسة الاستشراقية التقليدية الأوربية ـ الأمريكية، لهذا فإنه طوال صفحات كتابه أعلن مراراً بأن المسلمين يجدون صعوبة للاندماج مع الحداثة (ص 168)، ويقول لإثبات فرضيته تلك إن المسلمين دون غيرهم من الحضارات قد عارضوا الهيمنة والاستعمار الغربي، ومثاله على ذلك معارضة المسلمين الفلبينيين للاحتلال الإسباني والاستعمار الأمريكي (ص 170 ـ 171). وفي ص 188 يقول صراحة: عند مقارنة الحضارات غير الغربية، نجد أن الخبرة الإسلامية هي الأقل تناسباً مع الحياة الحديثة، حيث يواجه المسلمون معضلات أكثر من الهنود والصينيين واليابانيين. وعلى الرغم من أن بايبس قد حاول تلطيف نزعته المتطرفة حينما قال في ص 192 ـ 193 إن رفض المسلمين للحداثة راجع إلى كونهم قد تعرضوا للاستعمار والهيمنة الغربية وإلى أن قيم الإسلام لا ترفض الحداثة، لكنه لم يستطع الانحلال من قيود نظرته المتعصبة بعد أقل من ثلاث صفحات فقط على ما تقدم (أي في ص 196)، حيث كتب إن ادعاء بعض المسلمين بفصل الحداثة عن التغريب هو مثل عملية إنجاب الأطفال ولكن دون اتصال جنسي.

وبعيداً عن الكتاب المشار إليه فإن دانييل بايبس يعتبر من أشد المستشرقين الجدد ذوي الميول الصهيونية الإسرائيلية، حيث يعبر عن آرائه المتشددة في العديد من كتاباته وبخاصة في صحيفة **وول ستريت جورنال** (*Wall Street Journal*)، (انظر الأعداد بتاريخ 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1992 و22 كانون الثاني/ يناير 1991 على سبيل المثال لا الحصر)، وفي إحدى مقالاته الشهيرة التي حملت عنوان «المسلمون قادمون، المسلمون قادمون!» والتي أشار إلى أن الدول الإسلامية هي أكثر الدول إرهاباً وأقلها ديمقراطية بين دول العالم؛ وللاستزادة انظر:

Daniel Pipes, "The Muslims are Coming! The Muslims are Coming," *National Review*, no. 42 (November 19, 1990): 29.

والمفارقة العجيبة أن بايبس يعمل محرراً لمجلة **كوارترلي ميدل إيست** (*Quarterly Middle East*) التي ينادي من خلالها بتعزيز «المصالح الأمريكية بالشرق الأوسط وتأهيل المجتمع الغربي للفهم السياسي والاجتماعي لدول الشرق الأوسط وشعوبه». علماً بأن هذه المجلة ممولة من مؤسسة برادلي التي تقف بانحياز ضد المسلمين وإلى جانب إسرائيل، كما هو مبين في الجزء الخاص بمراكز الفكر من هذا البحث.

29. إدوارد سعيد، **تعقيبات على الاستشراق**، مرجع سابق، ص 33-62.

30. المرجع السابق، ص 47.

ويرى رالف برايبانتي أنه ومنذ نشأة إسرائيل عام 1948 لم ينقض أسبوع دون تنبيه العالم على خطر الإسلام، حيث أتى ذلك الإيعاز بشكل قوالب فكرية وموضوعات إعلامية مثل الحرب، والاعتداء، والإرهاب، والنفط، والمقاطعة، والتطهير العرقي، والاعتداء على الإنسانية، وصراع الحدود. وهذه الأخبار كانت تغطي العالم الإسلامي من فلسطين إلى الفلبين مروراً بكشمير والكويت وقبرص والشيشان والبوسنة وصحراء المغرب ولبنان، حتى أصاب العالم الغربي داء اسمه الخوف من الإسلام (Islamaphopia)، للتفصيل راجع:

Ralph Braibanti, "Islam and the West: Common Cause or Clash?" *The Journal of Islamic Social Sciences*, vol 16, no. 1 (Spring, 1999): 1-39.

31. انظر:

Arthur Lowrie, "The Campaign Against Islam and American Foreign Policy," *Middle East Policy*, vol. 4, no. 1-2 (September, 1995): 210-219.

32. Ibid.: 216 - 217؛ يقول الباحث: إن كتّاب مقالات صحفية من باحثين ومعلقين مناصرين لإسرائيل وإسرائيليين داخل الولايات المتحدة الأمريكية شنوا حملة دعائية ضد زيارة الشيخ راشد الغنوشي عندما كان مدعواً لإجراء حوار مع بعض الأكاديميين الأمريكيين، مما ترتب عليه عدم منحه تأشيرة الدخول وبالتالي إلغاء الحوار المزمع عقده.

33. فواز جرجس، مرجع سابق، ص 22.

34. انظر:

Shimon Peres, *The New Middle East* (New York: Henry Holt, 1993), 38-39.

35. انظر:

Emmanuel Sivan, *Radical Islam: Medieval Theology and Modern Politics* (Binghamton, NY: Vail-Ballou Press, 1985).

ولقد أشار شمعون بيريز إلى كتاب سيفان في ص 40، حيث اعتمد على نتائجه كي يعطي وصفاً عاماً عن الإسلام والحركات الإسلامية بوصفهما خطراً يداهم الحضارة والمدنية بشكل عام.

36. انظر:

Raphael Israeli, *Fundamentalist Islam and Israel*, The Jerusalem Center for Public Affairs (New York: Lanham, 1993), 201.

37. انظر:

Haim Baram, "The Demon Islam," *Middle East International*, no. 2 (December, 1994): 8.

38. جيمس آلان سميث، **سماسرة الأفكار**، ترجمة مجدي عبدالكريم (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1994).

39. المرجع السابق، ص 396.

40. Arthur Lowrie, op. cit.: 215.

41. ميخائيل سليمان، «فلسطين والفلسطينيون في العقل الأمريكي»، في ميخائيل سليمان (محرر)، **فلسطين والسياسة الأمريكية من ويلسون إلى كليتون** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996)، ص 19ـ42.

42. برنارد لويس وإدوارد سعيد، **الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية** (بيروت: دار الجيل، 1994)، ص 37.

43. راجع كتاب:

Fuad Sha'ban, *Islam and the Arab in Early American Thought: The Roots of Orientalism in America* (Durham, North Carolina: The Acorn Press, 1991), 141-176.

ويؤكد فؤاد شعبان من خلال كتابه مدى الترابط بين العقيدة المسيحية حول عودة المسيح وعودة الأرض وبين اكتشاف أمريكا التي وجد بها المهاجرون الأوائل ما يسمى "بمملكة الله" . وهذا الترابط العضوي بين الواقع الجديد والفكر الكلاسيكي للمهاجرين الأوربيين أدى إلى تبلور أفكار خاصة تجاه إسرائيل والعرب والمسلمين لا تخرج عن سياق الأفكار الأوربية التقليدية التي ولدتها المدرسة الاستشراقية.

44. ميخائيل سليمان، «فلسطين والفلسطينيون في العقل الأمريكي»، مرجع سابق، ص 32.

45. انظر:

Edward Said, *Covering Islam* (New York: Pantheon Books, 1981), 33-64.

46. *Newsweek*, November 21, 1995.

47. *The New York Times*, April 21, 1994.

48. *The New York Times*, June 22, 1992.

49. *International Herald Tribune*, April 20, 1995.

50. انظر:

The New York Times, April 20, 1995; *International Herald Tribune*, April 26, 1995.

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من تصريح الرئيس كلنتون بأنه ليس من الحكمة أن يتم اتهام جماعة معينة بذاتها قبل الانتهاء من التحقيق، فإن هذه الأخبار وبرنامج «الجهاد في أمريكا» الذي أعده ستيفن إمرسون كانت السبب خلف كثير من الحوادث العرقية ضد المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية. وللحق فإن الرئيس كلنتون كان إلى حد ما يمثل صوتاً شاذاً حينما حذر من مغبة القفز إلى نتائج من دون أدلة لما له من أخطار، ولكن بعض عناصر المؤسسات الاستشراقية وبخاصة المتطرفون منهم، كان لهم صوت مرتفع في وسط عمل إجرامي أزهق أرواح كثير من الأبرياء في حادث تفجير مبنى أوكلاهوما سيتي.

51. راجع دراسة: Arthur Lowrie, op. cit.: 213.

52. *The Jerusalem Post*, January 1st, 1995.

وهناك كثير من الأمثلة الأخرى التي لا يمكن حصرها في هذا البحث. مثل مقالة فرجرس بوردوج (Fregurs Bordewick)، «حرب الجهاد تتجه إلى طريقنا» المنشورة في مجلة **ريدرز دايجست** (*Reader's Digest*) في حزيران/ يونيو 1995، ومقالة مجلة **نيوزويك** (*Newsweek*) التي حملت عنوان «حرب أوربا الباردة تتجه إلى الإسلام» ترجمتها صحيفة **الأنباء** الكويتية في عددها 6837 والصادر في 28 أيار/ مايو 1995، ومقالة مورتمر زوكرمان (Mortimer Zuckerman) رئيس تحرير مجلة **يو أس نيوز** (*US News*) الذي افتتح مجلته بتاريخ 22 آذار/ مارس 1993 بمقال مفاده أن الإسلاميين يحلون محل الشيوعية وأنهم العدو الأول للغرب؛ ومقالة أموس بيرلموتر (Amos Perlmutter) رئيس تحرير مجلة **الدراسات الاستراتيجية** (*Journal of Strategic Studies*) في صحيفة **واشنطن بوست** (*Washington Post*) بتاريخ 17 كانون الثاني/ يناير 1995 والتي كتب فيها قائلاً إن الأيديولوجية النازية والفاشية لها ما يماثلها عند الإسلاميين الأعداء الأوائل للغرب، الذين يعدون الغرب متشابهاً مع الصليبيين، وإن على الغرب ألا يتيح الفرصة لأن يأخذ هؤلاء الإسلاميون محل الشيوعية بالأمس.

53. انظر:

Judith Miller, "The Challenge of Radical Islam," *Foreign Affairs*, vol. 72, no. 2 (Spring, 1993): 45.

54. إدوارد سعيد، «مراجعة لكتاب جوديث ميلر: أسماء الله الحسنى الـ 99»، صحيفة **الطليعة**، العدد 1300 (الكويت: 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1997)، ص15.

55. ميخائيل سليمان، **صورة العرب في عقول الأمريكيين**، ترجمة عطا عبدالوهاب، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1987)، ص 196. بالإضافة إلى ذلك، يتعرض فواز جرجس إلى النتائج نفسها التي استعرضها ميخائيل سليمان. راجع فواز جرجس، **السياسة الأمريكية تجاه العرب كيف تصنع؟ ومن يصنعها؟** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، ص 119-132. هذا، ويؤدي الإعلام، بصورة عامة، دوراً سياسياً كبيراً في أوساط المجتمع الأمريكي لصناعة المعرفة كما يطلق عليها هربرت شيللر الذي بيّن علاقة المؤسسات الإعلامية بالمؤسسات السياسية والاقتصادية والمنشآت العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية ودورها في تمرير السياسات العامة بعد تهيئة الأجواء الإعلامية الملائمة تحت غطاء ديمقراطي ودستوري. للتفصيل راجع كتابه القيم **المتلاعبون بالعقول**، ترجمة عبدالسلام رضوان، العدد 243، سلسلة **عالم المعرفة**، الإصدار الثاني (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999)، وخصوصاً ص 49-148.

56. Raphael Israeli, op. cit., 191.

57. انظر: «لماذا لا يتحدث الغرب عن الإرهاب اليهودي»، صحيفة **الإندبندنت** البريطانية، ترجمتها صحيفة **الأنباء**، العدد 7747 (الكويت: 1 كانون الأول/ ديسمبر 1997)، ص 26. للاستزادة حول الموضوع، انظر: طاهر شاش، **التطرف والإرهاب الإسرائيلي جذوره وحصاده** (القاهرة: دار الشروق، 1997).

58. انظر:

Edward Herman, "The Media's Role in US Foreign Policy," *The Journal of International Affairs*, vol. 47, no. 1 (Summer, 1993): 25-47.

59. ميخائيل سليمان، **صورة العرب في عقول الأمريكيين**، مرجع سابق، ص 24 و31-33، والصحف والمجلات الأمريكية السبع هي:

1. *News of the Week in Review*
2. *Times*
3. *Newsweek*
4. *Life*
5. *M.S News and World Report*
6. *The News Republic*
7. *The Nation*

60. انظر:

Edward Herman and Gerry O'Sullivan, "Terrorism as Ideology and Cultural Industry," In Alexander George (ed), *Western State Terrorism* (Cornwall, UK: T. J. Press Ltd., 1991), 39-75.

61. Ibid., 67.

وليس من الغريب إذاً أن تطفو على السطح بعض المقالات والدراسات التي تدين كل ما له صبغة إسلامية والتي تنشر بأوسع المجلات انتشاراً في العالم. فعلى سبيل المثال لا الحصر، نشرت مؤخراً دراسة بعنوان «المنظمات الإسلامية في الشبكة الإلكترونية». وفي هذه المقالة يتهم المؤلف المنظمات الإسلامية بأنها تستخدم هذه التقنية الغربية لتقويض أمن المجتمعات الغربية ولتشن حرباً ضد إسرائيل والغرب. وعند فحص الأدلة التي ساقها المؤلف، لا نجد إلا دعوات إلى تجمعات تقوم بها منظمات إسلامية وطلابية لإدانة إسرائيل، بالإضافة إلى بعض الرسائل الإلكترونية المرسلة من بعض المتعصبين الذين يدعون إلى العنف ضد المدنيين، في حين أنهم لا يحملون أي صفة تمثيلية لأي منظمة إسلامية معتد بها. كما يتهم المؤلف بعض المنظمات الإسلامية بالعنف والإرهاب لكونها تستخدم المفتاح (الكود) السري للدخول إلى شبكتها! ويدعو المؤلف في نهاية مقاله الدول الغربية لمراقبة النشاطات الإسلامية بعين الشك والريبة لأنها تمارس ما يسميه «الإرهاب الإلكتروني»! وللاستزادة راجع:

Michael Whine, "Islamist Organizations on the Internet," *Terrorism and Political Violence*, vol. 11, no. 1 (Spring, 1999): 123-132.

62. انظر:

Richard Falk, "The Terrorist Foundations of Recent US Foreign Policy," In Alexander George (ed), *op. cit.*, 108.

63. انظر:

Alexander George, "The Disipline of Terrorology," In Alexander George (ed), Ibid., 92.

64. حلمي خضر ساري، **صورة العرب في الصحافة البريطانية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988)، ص 131 ـ 169 و195 ـ 210.

65. سامي مسلم، **صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1985)، ص 33 ـ 43 و 47 ـ 76 و183 ـ 196.

66. مارلين نصر، **صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995)، ص 155 ـ 156 و231 ـ 232، وعلى وجه الخصوص راجع الفصل الختامي، ص 307 ـ 340.

67. ميخائيل سليمان، «فلسطين والفلسطينيون في العقل الأمريكي»، مرجع سابق، ص 31.

68. ميخائيل سليمان، **صورة العرب في عقول الأمريكيين**، مرجع سابق، ص 113 ـ 114، و122 ـ 124. ويمكن للقارئ كذلك أن يطلع على كتاب فؤاد شعبان، الذي تمت الإشارة إليه سابقاً، للتوسع في معرفة العلاقة بين الاستشراق الأمريكي وجذور الفكر الأمريكي ـ المسيحي منذ الهجرات الاستيطانية الأولى بعد اكتشاف القارة الأمريكية، حيث يورد المؤلف مسحاً فكرياً للأفكار الأمريكية الأولى عن الشرق وبالتحديد عن المسلمين والعرب واليهود.

69. ميخائيل سليمان، «فلسطين والفلسطينيون في العقل الأمريكي»، مرجع سابق، ص 23 ـ 24.

70. عبدالعزيز سرحان، **العودة لممارسة القانون الدولي الأوربي ـ المسيحي** (القاهرة: دار النهضة العربية، 1995)، ص 214.

71. جيرار كورنو، **معجم المصطلحات القانونية**، ترجمة منصور القاضي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1998)، ص 106.

72. لمعرفة تفاصيل هـذا الحـوار راجع كتـاب ألكسي جورافسكي، مرجع سابق، ص 107 ـ 172.

73. Edward Said, *Culture and Imperialism*, op. cit., 31-32.

74. نقلاً عن المرجع السابق، ص 30.

نبذة عن المؤلف

عبدالله يوسف سهر محمد: حصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية عام 1994 من جامعة كنتاكي بالولايات المتحدة الأمريكية. يعمل أستاذاً مشاركاً في قسم العلوم السياسية بجامعة الكويت منذ عام 1994. وقد عمل أستاذاً زائراً في جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية في الفترة 1997 ـ 1998، ومحاضراً في جامعة كنتاكي في الفترة 1992 ـ 1994، ومعيداً عضو بعثة في قسم العلوم السياسية بجامعة الكويت في الفترة 1987 ـ 1994. له عدد من الدراسات المنشورة في الدوريات الأجنبية والعربية، منها:

- "The Yemeni Unification from Dream to Nightmare: The Failure of Elite's Approach," *Korean Journal of Area Studies* (December 1994);
- «الخليج ومحاولات الهيمنة العالمية على منابع النفط»، مجلة **السياسة الدولية**، العدد 133 (تموز/ يوليو 1998)؛
- «الكويت والعلاقات مع دول الضد: دراسة ميدانية»، مجلة **المستقبل العربي**، العدد 245 (تموز/ يوليو 1999).

صدر من سلسلة دراسات استراتيجية

12 - عبدالفتاح الرشدان	العرب والجماعة الأوربية في عالم متغير
13 - ماجد كيَّالي	المشروع "الشرق أوسطي" أبعاده - مرتكزاته - تناقضاته
14 - حسين عبدالله	النفط العربي خلال المستقبل المنظور معالم محورية على الطريق
15 - مفيد الزيدي	بدايات النهضة الثقافية في منطقة الخليج العربي في النصف الأول من القرن العشرين
16 - عبدالمنعم السيد علي	دور الجهاز المصرفي والبنك المركزي في تنمية الأسواق المالية في البلدان العربية
17 - ممدوح محمود مصطفى	مفهوم «النظام الدولي» بين العلمية والنمطية
18 - محمد مطر	الالتزام بمعايير المحاسبة والتدقيق الدولية كشرط لانضمام الدول إلى منظمة التجارة العالمية
19 - أمين محمود عطايا	الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية
20 - سالم توفيق النجفي	الأمن الغذائي العربي، المتضمنات الاقتصادية والتغيرات المحتملة (التركيز على الحبوب)
21 - إبراهيم سليمان المهنا	مشروعات التعاون الاقتصادي الإقليمية والدولية مجلس التعاون لدول الخليج العربية: خيارات وبدائل
22 - عماد قدورة	نحو أمن عربي للبحر الأحمر
23 - جلال عبدالله معوض	العلاقات الاقتصادية العربية - التركية
24 - عادل عوض وسامي عوض	البحث العلمي العربي وتحديات القرن القادم برنامج مقترح للاتصال والربط بين الجامعات العربية ومؤسسات التنمية
25 - محمد عبدالقادر محمد	استراتيجية التفاوض السورية مع إسرائيل

26 - ظاهر محمد صكر الحسناوي	الرؤية الأمريكية للصراع المصري ـ البريطاني من حريق القاهرة حتى قيام الثورة
27 - صالح محمود القاسم	الديمقراطية والحرب في الشرق الأوسط خلال الفترة 1945 ـ 1989
28 - فايز سارة	الجيش الإسرائيلي: الخلفية، الواقع، المستقبل
29 - عدنان محمد هياجنة	دبلوماسية الدول العظمى في ظل النظام الدولي تجاه العالم العربي
30 - جلال الدين عزالدين علي	الصراع الداخلي في إسرائيل (دراسة استكشافية أولية)
31 - سعد ناجي جواد وعبدالسلام إبراهيم بغدادي	الأمن القومي العربي ودول الجوار الأفريقي
32 - هيل عجمي جميل	الاستثمار الأجنبي المباشر الخاص في الدول النامية الحجم والاتجاه والمستقبل
33 - كمال محمد الأسطل	نحو صياغة نظرية لأمن دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية
34 - عصام فاهم العامري	خصائص ترسانة إسرائيل النووية وبناء «الشرق الأوسط الجديد» دراسة في الوظيفة الإقليمية والدولية لإسرائيل خلال الأعوام القادمة
35 - علي محمود العائدي	الإعلام العربي أمام التحديات المعاصرة

36 - مصطفى حسين المتوكل — محددات الطاقة الضريبية في الدول النامية مع دراسة للطاقة الضريبية في اليمن

37 - أحمد محمد الرشيدي — التسوية السلمية لمنازعات الحدود والمنازعات الإقليمية في العلاقات الدولية المعاصرة

38 - إبراهيم خالد عبدالكريم — الاستراتيجية الإسرائيلية إزاء شبه الجزيرة العربية

39 - جمال عبدالكريم الشلبي — التحول الديمقراطي وحرية الصحافة في الأردن

40 - أحمد سليم البرصان — إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وحرب حزيران/ يونيو 1967

41 - حسن بكر أحمد — العلاقات العربية ـ التركية بين الحاضر والمستقبل

42 - عبدالقادر محمد فهمي — دور الصين في البنية الهيكلية للنظام الدولي

43 - عوني عبدالرحمن السبعاوي
عبدالجبار عبد مصطفى النعيمي — العلاقات الخليجية ـ التركية معطيات الواقع، وآفاق المستقبل

44 - إبراهيم سليمان مهنا — التحضر وهيمنة المدن الرئيسية في الدول العربية: أبعاد وآثار على التنمية المستدامة

45 - محمد صالح العجيلي — دولة الإمارات العربية المتحدة دراسة في الجغرافيا السياسية

46 - موسى السيد علي — القضية الكردية في العراق من الاستنزاف إلى تهديد الجغرافيا السياسية

47 - سمير أحمد الزبن — النظام العربي، ماضيه، حاضره، مستقبله

48 - الصوفي ولد الشيباني ولد إبراهيم	التنمية وهجرة الأدمغة في العالم العربي
49 - باسيل يوسف باسيل	سيادة الدول في ضوء الحماية الدولية لحقوق الإنسان
50 - عبدالرزاق فريد المالكي	ظاهرة الطلاق في دولة الإمارات العربية المتحدة: أسبابه واتجاهاته - مخاطره وحلوله (دراسة ميدانية)
51 - شذا جمال خطيب	الأزمة المالية والنقدية في دول جنوب شرقي آسيا
52 - عبداللطيف محمود محمد	موقع التعليم لدى طرفي الصراع العربي - الإسرائيلي في مرحلة المواجهة المسلحة والحشد الأيديولوجي
53 - جورج شكري كتن	العلاقات الروسية - العربية في القرن العشرين وآفاقها
54 - علي أحمد فياض	مكانة حق العودة في الفكر السياسي الفلسطيني
55 - مصطفى عبدالواحد الولي	أمن إسرائيل: الجوهر والأبعاد
56 - خيرالدين نصر عبدالرحمن	آسيا مسرح حرب عالمية محتملة
57 - عبدالله يوسف سهر محمد	مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين

قواعد النشر

أولاً - القواعد العامة:

1. تقبل البحوث ذات الصلة بالدراسات الاستراتيجية، وباللغة العربية فحسب.
2. يشترط ألا يكون البحث قد سبق نشره، أو قُدم للنشر في جهات أخرى.
3. يراعى في البحث اعتماد الأصول العلمية والمنهجية المتعارف عليها في كتابة البحوث الأكاديمية.
4. يتعين ألا يزيد عدد صفحات البحث على 50 صفحة مطبوعة (A4)، بما في ذلك الهوامش، والمراجع، والملاحق.
5. يقدم البحث مطبوعاً في نسختين، بعد مراجعته من الأخطاء الطباعية.
6. يرفق الباحث بياناً موجزاً بسيرته العلمية، وعنوانه بالتفصيل، ورقم الهاتف والفاكس (إن وجد).
7. على الباحث أن يقدم موافقة الجهة التي قدمت له دعماً مالياً، أو مساعدة علمية (إن وجدت).
8. تكتب الهوامش بأرقام متسلسلة، وتوضع في نهاية البحث مع قائمة المراجع.
9. تطبع الجداول والرسوم البيانية على صفحات مستقلة، مع تحديد مصادرها، ويشار إلى مواقعها في متن البحث.
10. تقوم هيئة التحرير بالمراجعة اللغوية، وتعديل المصطلحات بالشكل الذي لا يخلُّ بمحتوى البحث أو مضمونه.
11. يراعى عند كتابة الهوامش ما يلي:

الكتب: المؤلف، عنوان الكتاب (دار النشر، مكان النشر، سنة النشر) الصفحة.

الدوريات: المؤلف، عنوان البحث، اسم الدورية، العدد (مكان النشر، السنة)، الصفحة.

ثانياً - إجراءات النشر:

1. ترسل البحوث والدراسات باسم رئيس تحرير **«دراسات استراتيجية»**.
2. يتم إخطار الباحث بما يفيد تسلم بحثه خلال شهر من تاريخ التسلم.
3. يرسل البحث إلى ثلاثة محكّمين من ذوي الاختصاص في مجال البحث بعد إجازته من هيئة التحرير، على أن يتم التحكيم في مدة لا تتجاوز أربعة أسابيع من تاريخ إرسال البحث للتحكيم.
4. يخطر الباحث بقرار صلاحية البحث للنشر من عدمه خلال ثمانية أسابيع على الأكثر من تاريخ تسلم البحث.
5. في حالة ورود ملاحظات من المحكمين؛ ترسل الملاحظات إلى الباحث لإجراء التعديلات اللازمة، على أن تعاد خلال مدة أقصاها شهر.
6. تصبح البحوث والدراسات المنشورة ملكاً لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ولا يحق للباحث إعادة نشرها في مكان آخر دون الحصول على موافقة كتابية من المركز.

قسيمة اشتراك في سلسلة

«دراسات استراتيجية»

الاســـم :

المؤسسة :

العنـوان :

ص . ب : المـدينـة :

الرمز البريدي :

الـدولـة :

هـاتـف : فـاكـس :

البريد الإلكتروني :

بدء الاشتراك : (من العدد: إلى العدد:)

رسـوم الاشـتراك*

للأفراد:	220 درهماً	60 دولاراً أمريكياً
للمؤسسات:	440 درهماً	120 دولاراً أمريكياً

- ☐ للاشتراك من داخل الدولة يقبل الدفع النقدي، والشيكات، والحوالات النقدية
- ☐ للاشتراك من خارج الدولة تقبل فقط الحوالات المصرفية شاملة المصاريف.

على أن تسدد القيمة بالدرهم الإماراتي أو بالدولار الأمريكي باسم مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

حساب رقم 0590712138 - بنك المشرق - فرع شارع خليفة

ص . ب : 858 أبوظبي - دولة الإمارات العربية المتحدة

ترجى موافاتنا بنسخة من إيصال التحويل مرافقة لقسيمة الاشتراك إلى العنوان التالي .

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

قسم التوزيع والمعارض

ص . ب : 4567 أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف : 6424044 (9712) فاكس : 6426533 (9712)

البريد الإلكتروني : books@ecssr.ac.ae

الموقع على الإنترنت : Website: http://www.ecssr.ac.ae

* تشمل رسوم الاشتراك الرسوم البريدية، وتغطي تكلفة اثني عشر عدداً من تاريخ بدء الاشتراك

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567 - أبوظبي - إ.ع.م - هاتف: 971-2-6423776 - فاكس: 971-2-6428844 - e-mail: pubdis@ecssr.ac.ae